رسالة بلوتارخوس

عن

# إيزيس وأوزيريس

ترجمها عن اليونانية

د. حسن صبحي بكري

مراجعة

د. محمد صقر خفاجة

الكتاب: رسالة بلوتار خوس عن (إيزيس وأوزيريس)

ترجمة: د. حسن صبحي بكري

مراجعة: د. محمد صقر خفاجة

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
**هاتف:** ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
**فاكس:** ٣٥٨٧٨٣٧٣
**http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com**



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

رسالة بلوتار خوس عن إيزيس وأوزيريس / ترجمة: د. حسن صبحي بكري،

مراجعة: د. محمد صقر خفاجة

صبحي سليم – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٣ – ٢٠٧ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٩٠٤١ / ٢٠٢١

## رسالة بلوتارخوس

## عن

# إيزيس وأوزيريس

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

# مقدمة

ولد بلوتار خوس (**Plutarchos**) حوالي عام ٤٦ ميلادية في مدينة خايرونيا (**Chaironeia**) في أقصى شمال بوؤتيا (**Boiotiai**) بوسط بلاد اليونان. وكان أبوه كاتبا كبيرا وفيلسوفا عظيما. أرسله إلى أثينا (**Athenai**) حوالي عام ٦٦ ميلادية ليدرس الفلسفة وعلوم الطبيعة والخطابة. غير أنه برع في علم الأخلاق. وكان إنسانا لطيفا أحبه كل من عرفه، ولاسيما أهل بلدته خايرونيا. وكان شخصا وديعا للغاية يتفانى في خدمة الناس. ويحتمل أنه عين قنصلا فترة من الزمن. وقد كان كثير الانتقال والسفر– زار روما، واسبرطة، وكورنثة، والإسكندرية، وغيرها من البلدان. ولكن حبه للأسفار لم يطغ على حبه لمسقط رأسه، ووطنه الصغير "خايرونيا" حيث استقر به المقام في نهاية المطاف، وافتتح مدرسة لتعليم التاريخ والفلسفة والأخلاق. ولكنه لم يقطع صلته بتلك المدينة المقدسة القديمة "دلفي" (**Delphoi**) التي اشتهرت بمعبد الإله أبو للون، والحجر المقدس المسمى "سرة الأرض" (**Omphalos**) أي وسطها. فقد عين بها كاهنا في عام ٩٥م، وظل كذلك حتى توفى بعد سنة ١٢٠م. وقد أنجبت له زوجته تموكسينا (**Timoxena**) خمسة أطفال: أربعة ذكور وأنثى واحدة.

ويمتاز بأنه كاتب قدير، ألّف كثيرا من الرسائل زاد عددها على

الستين سُميت بالأخلاقيات (opera moralia) تناول فيها موضوعات شتى في الأخلاق والدين والسياسة والفلسفة. فاهتم بفلسفة فيثاغورس، ونقد الرواقية، والأبيقورية وامتدح الأفلاطونية. وإلى جانب ذلك ألّف في الطبيعة والفلك، والتاريخ الطبعي، والآثار. وبرع أيضا في كتابة تراجم لمشاهير الجنود، ورجال السياسة، والمشرعين، والأطباء من الإغريق، والرومان تشهد له باطلاع واسع في التاريخ، وفهم دقيق لشئون السياسة. غير أن اهتمامه بالأخلاق، والفضيلة كان أعظم من اهتمامه بأي شيء آخر، وذلك لتدينه الشديد، وتقواه البالغة. وقد تجلى احترامه للدين، واحتقاره للخرافة في رسالته عن إيزيس وأوزيريس ( De Iside et Osiride) "بالفصل ٦٧" وفي رسالته عن الخرافات على وجه خاص De superstitione فالخرافة في رأيه ما هي إلا التقوى في أبشع صورها وأقبحها، والإلحاد أقل شرا من الخرافة، وإن كان مصدر الخرافة والإلحاد واحدا، وهو الجهل بطبيعة الله. وكان يرى أن السبيل إلى التقوى الصحيحة معرفة الحقيقة عن طريق إعمال العقل، وكبت المشاعر. لذلك أخضع الأخلاق، والدين، والفلسفة جميعا للعقل. ورأى فيه مصدرا لسعادة الإنسان، ومعينا له على فهم أمور الدين. وقد قال يجب على الإنسان في هذه الأمور أن "يأخذ بالمنطق الذي ينبع من الفلسفة" "الفصل ٦٨". وعرّف الفضيلة بأنها إخضاع الجانب الشهواني، وغير العاقل من الروح للجانب العاقل منها. وقد عالج ذلك في مؤلفه عن الخلق الفاضل De virtute morali ولعله اهتم بمختلف

المذاهب الفلسفية لأنها صادرة عن العقل، فذكرها جميعا في وقت واحد، وجنبا إلى جنب كما تبدو في رسالته عن إيزيس وأوزيريس حيث حاول التوفيق بينها جميعا. فأصبحت فلسفته الخاصة– إذا جاز لنا أن ننسب إليه فلسفة ما– فلسفة أخلاقية عقلية عملية.

ثم إنه بحث في الله وعلاقته بالوجود على غرار الفلاسفة الذين جاءوا من قبله، والذين اهتدوا إلى ذلك الكائن الأول المدرك بالعقل يقول: إن الله– أو ذلك العقل– قد خلق الكائنات، ورعاها، وإن هذه الكائنات تدركه بالعقل عن طريق وسطاء من الجِنَّة الخيرة كالإلهين إيزيس، وأوزيريس.

وهكذا استغل حوادث أسطورة إيزيس وأوزيريس لتفسير آرائه في الأخلاق، والدين، والفلسفة، وللتعليق على تلك الآراء السخيفة التي يراها بعضهم في الله، وللدفع عن الرأي القائل بأن الأمم، وإن اختلفت شعوبا، تتحد في عقيدتها في ذلك الكائن العاقل. ومع ذلك يذهب إلى أن هناك مبدأين: مبدأ للخير، ومبدأ للشر، وإلى أن في وجود مبدأ الشر بجوار مبدأ الخير– أو على الأحرى في تصارعهما– ضرورة لبقاء الكون واطراد الحياة، إلا أنه ينفي عن الله الشر، ولا ينسبه إلا إلى الجنَّة الخبيثة.

وفي الحق نجح نجاحا عظيما في استغلاله هذه الأسطورة، إذ كانت عقيدة الإلهين إيزيس وأوزيريس– أو على وجه أصح سرابس–

واسعة الانتشار في ربوع الإمبراطورية الرومانية من ناحية؛ فشيد القوم لهما في أوربا معابد شتى، ونذروا لهما النذور، وعيّنوا لهما الكهان الأتقياء المجتهدين ذلك في الوقت الذي كانت ديانة الإمبراطورية فيه قد عفا عليها الزمن، ومن ناحية أخرى كانت تلك العقيدة المصرية في أوربا ذات أثر قوي في النفوس؛ فكانت سلوى القوم في مصائب هذه الحياة الدنيا، ومبعث الأمل في حياة سعيدة في الآخرة. وكانت تجذب قلوب الناس بأفكارها النبيلة، وأعيادها، وأحفالها، وطقوسها. لقد كان إيزيس في أوربا مثال الزوجة المخلصة الوفية، والأم الرءوم، والمرأة الورعة المتقية، كما كانت رمزاً للحب الخالص عند الفتيات، والفتيان. وكان أوزيريس أيضا مثال الزوج الشهم، والأب الكريم، والحاكم العدل، وفوق هذا وذاك معلم البشر الأول، ومؤسس الحضارة الإنسانية، ورسول المحبة والسلام على الأرض، مما تفيض به الأناشيد المصرية، والنصوص اليونانية والرومانية القديمة. وكان كلا الإلهين ينصح الناس بإتباع الفضائل، وينهاهم عن ارتكاب المعاصي خشية يوم الحساب.

ولم ينس الناس آلام إيزيس وأوزيريس في العصور الحديثة. ففي القرن الثامن عشر استغل الموسيقي الألماني الشهير موزارت (١٧٥٦–١٧٩١م) أسطورة إيزيس، وأوزيريس فخلق منها أوبرا عالمية سماها "الناي السحري" (Zauber Flote). وكان موزارت يستهدف منها نشر الماسونية بين الناس، وإدخالهم فيها بسحر الموسيقى، كما كان القوم في

بلاد اليونان والرومان القديمة يدخلون في الأسرار الدينية للإلهة إيزيس من قبل.

ولاشك في أن الفضل في كل هذا يرجع إلى بلوتار خوس، إذ أنه كان أول من عرف العالم منذ بداية التاريخ الميلادي بهذه الأسطورة فسرد حوادثها سردا يكاد يكون كاملا بينما اقتضبتها النصوص المصرية القديمة، ونشرتها مبعثرة على جدران الأهرام، وجوانب التوابيت، وصفحات البردي، واللوحات الجنازية. كتبها باليونانية القديمة ثم ترجمها الكُتَّاب في العصور الوسطى والحديثة إلى لغاتهم[1] اللهم إلا العربية؛ مما

[1] لرسالة بلوتارخوس ست مخطوطات: اثنتان في باريس، وثلاث في فلورنسا، وواحدة في البندقية. وقد نشرت وترجمت إلى لغات مختلفة منها ما يأتي:

| اللغة | الناشر والمترجم | الطبعة | العام |
|---|---|---|---|
| اللاتينية | Wilh. Xylander | طبعة بازل | ١٥٧٠ |
| | Herm. Gruserius | " " | ١٥٧٣ |
| | G. Bemardakis | " ليبزج | ١٨٨٩ |
| | W. Sieveking | " " | ١٩٣٢ |
| الفرنسية | Jac. Amyot | " باريس | ١٥٥٩ |
| | Dom. Ricard | " " | ١٧٨٣- ١٧٩٤ |
| | Mario Meunier | " " | ١٩٢٤ |
| الإيطالية | Sebast. Giampi | " ميلاند | ١٨١٩ و١٨٢٧ |
| الأسبانية | Diego Grcacian | " الكالا | ١٥٤٨ |
| | | وسلامنكا | ١٥٧١ |
| الألمانية | J. S. Semler | برزلاو، وليبزج | ١٧٤٨ |
| | J. F. S. Kaltwasser | فرنكفورت- ماين | ١٧٨٣- ١٨٠٠ |

حفزنا إلى سد هذا النقص بترجمتنا الحالية.

قلنا: إنه استغلها في التعبير الرمزي عن آرائه في الأخلاق، والدين، والفلسفة، فجاءت مناسبة للظروف التي عاش فيها، إذ كان عصره عصر فلسفة. وفي أوائل عام ١٩٥٦ ظهرت لتوفيق الحكيم مسرحية بعنوان "إيزيس" عرض فيها قضية الصراع بين رجل العلم والمبادئ، ورجل الحيل والسياسة كما يقول في بيانه الذي ذيَّل به مسرحيته. ويتساءل الحكيم: "أهو العالم الذي يخترع ويكتشف ويوفر الغذاء ويغير المصائر؟ أم هو الرجل الآخر (أي رجل السياسة) الذي يتفوق بالبراعة في الاستحواذ على أزمة الجموع؟" هذا هو الصراع الذي يتميز به عصرنا اليوم؟ والذي يتنبأ الحكيم باحتدامه حوالي سنة ٢٠٠٠ ميلادية، أي بعد نصف قرن تقريباً، ويصوّره في صورة الصراع بين أوزيريس، وأخيه توفون، ذلك الصراع الذي انتصر فيه توفون الشرير الهدام على أوزيريس الخير المصلح. ولكن

---

| | | | |
|---|---|---|---|
| | J. Chr. F. Bahr | " شتوتجارت | ١٨٣١ |
| | Gustav Parthey | " برلين | ١٨٥٠ |
| | Theodor Hopfner | " براج | ١٩٤١ |
| الإنجليزية | W. Baxter | " لندن | ١٦٨٤ و١٧١٨ |
| | Sam. Squire | "كمبردج | ١٧٤٤ |
| | C. W. King | " لندن | ١٩٠٨ |
| | F. C. Babbitt | " لندن | ١٩٣٦ و١٩٥٧ |
| | W. W. Goodwin | " بوستن | ١٨٧٤ |

إيزيس لم تستطع أن تنتزع من توفون هذا الانتصار إلا بعد أن حاربته بسلاحه هو ذاته، وعاونها شيخ البلد الداهية الذي كان ساعد توفون الأيمن بعد أن اشترته بالأصفر الرنان. ويقول توت لمسطاط: "اسمع يا مسطاط! إن مبادئ أوزيريس... أي مبادئنا لا يمكن أن تعمل عملها إلا في حالة واحدة وعلى فرض واحد: هو خلو الميدان من المغامر المحتال... أما إذا ظهر المغامر فلا بد أن تحاربه بسلاحه كي تنتصر[٢]... وفعلا انتصرت عليه، واستطاعت أن تجلس ابنها هو رُس على عرش أبيه أوزيريس.

ولقد روى بلوتارخوس أسطورة إيزيس في قالب قصصي، بينما صاغها الحكيم في قالب مسرحي، واقتبس أهم حوادثها من رواية بلوتارخوس نفسه اقتباساً يكاد يكون صادقاً، وضمنها قضيته الإنسانية بأسرها– وبعبارة أخرى– أهم مشكلات الزمان الذي نعيش فيه. وفي الواقع سُردت معظم حوادث الأسطورة في المسرحية بطريق غير مباشر– هو الحوار– حتى لتكاد مسرحية الحكيم أن تخرج من مجال "الدراما" إلى مجال القصة. ولسنا هنا في مجال يسمح لنا بنقد مسرحية الحكيم من الناحيتين الأدبية، والفنية إذ يهمنا منها الحوادث أكثر من أي شيء آخر. ولقد قال الحكيم في أول عبارة من بيانه: "ليس المقصود هنا تصوير الحياة الفرعونية، أو بسط العقائد المصرية، بل المقصود هو إبراز

---

(٢) الفصل الثالث، المنظر الأول، ص ١٣٨ و١٣٩.

أشخاص الأسطورة إبرازاً جديداً إنسانياً، وتخريج معناها على النحو المفهوم الحي في كل عصر وفي العصور الحديثة على الأخص". وإننا نخالف الحكيم في الشطر الأول من عبارته، لأنه صوّر لنا في أشخاص المسرحية البارزين بعض نواحي الحياة، والأخلاق، والعادات المصرية القديمة: كالصراع بين أوزيريس، وتوفون على عرش مصر، والصراع بين هورُس "المنتقم لأبيه"، وتوفون، وحزن إيزيس الشديد عليه، وبحثها عنه في كل مكان، وسحر إيزيس، وقصة الوليمة التي أولمها توفون لأخيه أوزيريس، وتمكنه من إغلاق الصندوق عليه، وإلقائه في البحر[٣]، وسفر إيزيس إلى بوبلوس، وعودتها من هناك به، ومؤامرة توفون على أوزيريس، وقتله إياه مرة أخرى، وإلقاء أشلائه في كل حدب، وصوب، وكفاح إيزيس في تربية هورُس حتى يكبر، وينتقم من عمه توفون، واتهام توفون لهورس بأنه ابن غير شرعي لأوزيريس.. الخ[٤].

وهكذا كانت أسطورة إيزيس، وأوزيريس في الزمان القديم، والحديث خير الأساطير التي يمكن استخدامها للتعبير عن كثيرا من الأفكار، والقضايا الإنسانية.

---

(٣) غير أن الحكيم ابتكر هنا قصة انتشال بحارة إحدى السفن صندوق أوزيريس من البحر وبيعهم أوزيريس إلى ملك بوبلوس– جبيل بسورية– وربما لجأ إلى ذلك لضرورة درامية.

(٤) ثم أن الحكيم ابتكر أيضاً حضور ملك بوبلوس إلى مصر ليقص على الشعب الذي يحاكم هورس، وتوفون قصة صندوق أوزيريس، فيعلم الشعب الحقيقة، ويثور على توفون فيهرب هذا طلباً للنجاة، ويستولى هورس على عرش مصر.

وجدير بنا أن نخرج للقارئ العربي عامة، وطلاب الدراسات القديمة خاصة، ترجمة للأسطورة كما رواها بلوتارخوس باليونانية القديمة. وقد توخينا أن تكون الترجمة صادقة أمينة، اعتمدنا فيها على النص اليوناني الذي نشره بابيت.

**Babbitt, F. C., Plutarch's Moralia, London, 1936, Vol. V. 351 C. 384 C., pp 6- 191.**

وحققه هُبفنر

**Hopfner, Th., Plutarch uber Isis und Osiris, Prag, 1940.**

ورسالة بلوتارخوس عن إيزيس هي الرسالة الثامنة عشرة بعد المائة من مؤلفاته حسب "كتالوج" لامبرياس (**Lamprias**). وقد ورد عنوانها في هذا "الكتالوج" هكذا: "قصة إيزيس وسرابس". وجدير بالذكر أننا نهجنا منهجاً جديداً في ترجمة أسماء الأعلام القديمة إلى العربية؛ فكتبناها كما كان ينطقها الإغريق القدماء. وكتبناها بين قوسين بالحروف اللاتينية، إلا ما عُرّب، واشتهر فقد أثبتناه كما شاع لنتجنب كل غموض، وإبهام. وبذلك نكون قد توخينا الأمانة، والدقة في ترجمة الأسماء الأعجمية. وإنَّا لعلى يقين أننا بفضل ما أخذنا من ألوان الثقافة قديمها، وحديثها سنستطيع أن نتذوق كتابة هذه الأعلام القديمة ونستسيغها.

وإننا لننوه في هذا الصدد بمجهود الدكتور محمد صقر خفاجة الذي راجع الترجمة على النص اليوناني بدقة وأناة. وإننا لا يسعنا إلا أن نشكر له على ذلك خالص الشكر.

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير، والسداد.

حسن صبحي بكري

الزمالك في أغسطس ١٩٥٨

# إيزيس وأوزيريس

١- إن من واجب الحكماء، يا كليا، أن يطلبوا من الآلهة كل خير، أما نحن على وجه خاص فنتوسل إليهم في بحثنا لنعرف منهم، بقدر ما نستطيع، حقيقة أنفسهم. فلا أجلّ عند الإنسان من أن يبلغ الحقيقة، ولا أعظم عند الله من أن يهبها. أما ما عداها من الأشياء التي يحتاج الناس إليها فيهبهم الله إياها. ولكنه لا يمنحهم من الفهم، والزكانة سوى جزء واحد، فهما ملكه الخاص، ومجال نشاطه. فما هو سعيد لامتلاكه اللجين، والنضار، وما هو بعزيز بالرعود، والبروق بل بالحكمة، والزكانة. وإن هذين البيتين لأروع ما قاله هو ميروس عن الآلهة:

حقيقة إنهما من أصل واحد، وبلد واحد

ولكن، وُلد زيوس قبله، وكان ذا حكمة أعظم

وبذلك بين أن سلطان زيوس كان أقوى (من سلطان أخيه بوسيدون) لأنه كان أعرق في المعرفة، والحكمة. وأعتقد أيضا أن سعادة الخلود عند الله ناشئة من أن كل ما يحدث فعلا لا يغيب عن علمه. أما إذا فقد إدراكه لحقيقة الموجودات، وتفكيره فيها فلن يكون خلوده حياة بل مجرد فكرة زمنية.

٢- ولذلك فالتطلع إلى الحقيقة- وخاصة حقيقة الآلهة- هو تطلع سماوي لأنه يتوصل بالدرس والبحث إلى معرفة الكائنات المقدسة، وهو عمل أشد قدسية من التطهر، ومن أي صلاة، أو طقس ديني.

وهذا التطلع يبعث السرور خاصة في نفس تلك الإلهة التي تعبدينها، تلك الإلهة الحكيمة، وحبيبة الحكمة بلا منازع، فاسمها يدل دلالة واضحة على أن المعرفة والحكمة تناسبانها تماما. فإيزيس يونانية، وكذلك توفون عدوها الذي أعمته جهالته، وغفلته، فمزق النصوص الدينية، وتركها تذروها الرياح فجمعتها الإلهة ثانية، وضمت أجزاءها بعضها إلى بعض، وسلمتها لأصحاب اللقانة، وعودتهم بهذا العمل الديني الذي يقوم على نظام صارم يتطلب الحد من الرغبات الجامحة، واللذات الجارفة، والزهد عن ألوان الطعام- عودتهم أن يقيموا في المعابد صلاة صارمة عنيفة الغرض منها معرفة الكائن الأول والمثل الأعلى، سيد الخلق الذي تحضنا الإلهة على البحث عنه، لأنه يقيم معها، وموجود بجوارها. ويدل أيضا اسم هيكلها دلالة واضحة على إدراك الحقيقة ومعرفتها. فهو يسمى ايزيون ليبين أننا سوف ندرك الحقيقة إذا دخلنا زونة[١] الإلهة عاقلين متقين.

٣- وكذلك يرى كثير من الكتاب أنها ابنة لهرميس، ويقول كثير غيرهم إنها ابنة برومثيوس اعتقاداً منهم بأن برومثيوس هو الذي اكتشف الحكمة، والنبوة، وبأن هرميس هو الذي ابتكر علم القواعد، وفن الموسيقى. وهذا هو السبب الذي يدعون من أجله كبيرة عرائس الفن في مدينة هروبوليس إيزيس، و"العدالة" ذلك لأنها حكيمة- كما ذكرت-

---

(١) الزون، والزونة- بيت الأصنام الذي يتخذ ويزين. الإفصاح في فقه اللغة ص ٦٩٧.

ولأنها تكشف الأسرار الإلهية لأولئك الذين يدعون "حملة السلال المقدسة" و"أصحاب الأردية المقدسة". وما حملة السلال إلا أولئك الذين يحملون في نفوسهم النصوص المقدسة المتعلقة بالآلهة خالية من كل خرافة وصنعة، يحملونها كما لو كانت في سلة، ويعتنون بها، ويشيرون بذلك إلى فهمهم الآلهة فهما مبهما حالكا في بعض الأحيان، واضحا متألقا في البعض الآخر، وهذا ما يعبر عنه بوضوح ارتداء الثوب المقدس "لكاهن إيزيس"، ومن أجل هذا كان تكفين الموتى من عباد إيزيس بهذه الأردية رمزاً إلى أن هذه النصوص الدينية تصاحبهم، وإلى أنهم يرحلون إلى العالم الآخر وليس في حوزتهم سواها. أي كليا! إن إرسال اللحى، وارتداء الثياب الخشنة لا يخلقان الفلاسفة، كما أن لبس الكتان، وحلق الشعر لا يجعلان الناس كهانا لإيزيس. إنما عابد إيزيس الحقيقي هو الذي يبحث بإمعان، ويتأمل الحقيقة التي يشتمل عليها كل ما يقدم لهؤلاء الآلهة، وكل ما يقام لهم من احفال عندما يتسلمه وفقا للتقاليد الموروثة.

٤- حقا إن معظم الناس يجهلون هذا الأمر العادي جدا، القليل الأهمية: أي السبب الذي يزيل الكهان من أجله شعورهم، ويرتدون أردية كتانية، فبعضهم لا يأبه ألبته بمعرفة شيء ما عن هذه المسألة، بينما يقول بعضهم الآخر: من أجل تبجيل الشاة يصدف الكهان عن استعمال صوفها، ويعزفون عن لحمها، ويحلقون رءوسهم حدادا، ويرتدون أرديتهم

الكتانية من أجل لون الكتان عندما يزهر، وهو لون شبيه بلون الأثير الذي يحيط بالكون. بيد أن لكل هذا علة واحدة صحيحة؛ وهي أنها كما قال أفلاطون: "ما من شيء طاهر ينبغي أن يمس شيئا غير طاهر"(٢). فليس فائض الطعام أو الإفراز طاهرا وصحيا. ولما كان الصوف، والوبر، والشعر، والأظافر تنبت، وتنمو من أنواع الفائض، فمن السخف إذن أن يزيل أولئك الأشخاص عند التنسك شعورهم بالحلق، وأن يصقلوا جميع أجسامهم، ثم يشتملون في الوقت ذاته بوبر الإبل، ويرتدونه. فعندما قال هيسيودوس:

إذا أنت أكرمت الآلهة في حفل عظيم فلا
تقطعن الذابل من الناضر بحديدة براقة حادة
فتبتر ذلك العضو ذا خمسة الفروع

أراد أن يعلم الناس أن يتطهروا من مثل هذه الأشياء عندما يقيمون حفلا عظيما، فلا يشغلون في أثناء هذه الأحفال المقدسة ذاتها بالتطهر، وبالتخلص من المواد الفائضة (وهي هنا الأظافر) بيد أن الكتان ينبت من الأرض الخالدة (أي المقدسة) ويخرج ثمارا تؤكل، ويزوّد الإنسان بلباس بسيط، ونظيف لا يضايقه بذلك الثقل الذي يحتاج إليه الإنسان عادة (لتدفئته) وهو مناسب لكل فصل ولا يولد، كما يقولون، الحشرات الخبيثة. ولقد تحدثنا عن هذا الموضوع في موضع آخر(٣).

(٢) محاورة فيدون، فصل ٦٧ ب.

(3) **Moralia, 642 C.**

٥- ويعاف الكهان كل ما له خاصية الإفراز حتى إنهم لا يعزفون فحسب عن معظم الخضر، وأصناف اللحوم كلحم الضأن، ولحم الخنزير مما يخرج إفرازات كثيرة، بل إنهم لا يستعملون الملح أيضا في طعامهم في أثناء تنسكهم، ويعللون هذه تعليلات عدة متباينة، غير أنهم يزعمون أن الملح على وجه خاص إذ يشحذ الشهوة إلى الطعام، يثير في الإنسان الشرب، والنهم. فالاعتقاد بأنه دنس، كما يزعم أريستاجوراس، لأنه عندما يتبلور يحبس داخله حيوانات صغيرة كثيرة فتموت فيه، لاشك اعتقاد سخيف.

ويقال أيضا: إنهم يسقون (العجل) آبس من بئر خاصة، ويبعدونه عن النيل تماما، لا لأنهم يعدون ماءه، كما يعتقد بعضهم، دنسا بسبب التماسيح- فما من شيء يبجله المصريون تبجيلا عظيما كالنيل- بل يظهر أن شرب ماء النيل يسمن ويشحم، ولكنهم لا يرغبون للعجل آبس، ولا لأنفسهم أيضا، مثل هذه الحال، بل يرغبون أن يكون الجسم المحيط بالروح خفيفا نحيفا. فلا يكبت العنصر الفاني العنصر الإلهي (فيه) ويثقل عليه.

٦- أما أولئك الذين يعبدون الإله في هليوبوليس لا يجلبون نبيذا ألبته في معبده إذ لا يليق بهم أن يحتسوا نبيذاً في وضح النهار بينما يطلع عليهم سيدهم، وملكيهم، ويحتسي غيرهم النبيذ بقدر معقول إذ يتنسكون أوقاتا كثيرة لا يشربون فيها النبيذ، بل يقومون بالبحث،

ويستذكرون المسائل الدينية، ويدرسونها. واعتاد الملوك أيضا ألا يشربوا من النبيذ إلا قدرا محدودا ذكرته الكتب المقدسة، كما قال هيكاتيوس، لأنهم كانوا كهانا؛ وإنما أخذوا يحتسونه من عهد بسماتيخوس؛ ولكنهم لم يشربوا قبل ذلك العهد نبيذا قط، ولم يريقوه قربانا حبيبا إلى الآلهة، بل كانوا يرون فيه دم الذين قاتلوا الآلهة في غابر الزمان، ولما هووا من السماء، واختلطوا بالتراب نبتت منهم الكروم. ومن أجل هذا بلغت السُّكر بالحواس، ويذهب بالعقول إذ يمتلئ السكارى عندئذ بدم السلف، ويقول يودكسوس في كتابه الثاني من مؤلفه "رحلة حول الأرض" إن الكهان ذكروا هذه الأمور على ذلك النحو.

٧- أما سمك البحر فلا يعزف عنه سائر (المصريين)، بل يزهدون فقط في أنواع معينة منه، فيعزف مثلا أهل اكسورينخوس عن أكل السمك الذي يصيده الشص. ولما كانوا يبجلون السمك المسمى اكسورينخوس (سمك الكراكي)[٤] ولذا كانوا يخشون أن يصبح الشص دنسا بعد أن يكون قد صاد سمكة من هذا النوع. ويعزف أهل سوينا عن سمك المرجان[٥]، إذ يظهر أن هذا السمك كذلك يفد مع فيضان النيل، ويأتيهم متطوعا مختارا يبشرهم بأخبار هذا الفيضان. ولكن الكهان

---

(٤) سمك الكراكي (**Pike**) سمك نهري طويل الخطم واسع الفم نهم كالقنومة التي في النيل يكون في المياه العذبة في أوربة: ولعله الاسم الشائع في مصر. معجم الحيوان، ص ١٨٩.

(٥) اسبور (**Sea- Bream**) معجم الحيوان، ص ٣٩ ومنه المرجان (**pagrus**) معجم الحيوان، ص ١٨١.

يصدفون تماماً عن جميع أنواع السمك. وفي اليوم التاسع من الشهر الأول عندما يلتهم سائر المصريين سمكا مشوياً أمام باب الدار لا يذوق الكهان منه شيئا، بل يحرقون السمك عند أبوابهم. ويعللون مسلكهم هذا بسببين: أحدهما ديني وغريب يتعلق بالتعاليم الدينية الخاصة بأوزيريس، وتوفون، وسأعود إلى مناقشته فيما بعد، والآخر واضح وعادي، وهو أن السمك غذاء غير ضروري، وزائد على الحاجة. وهذا يؤيد هوميروس عندما يصف الفياكيانس الذين كانوا في بلهنية من العيش، وأهل إيثاكا، بأنهم قوم لا يأكلون السمك، وكذلك فعل رفاق أودوسيوس الذين كانوا على سفر طويل عبر اليم حتى أشرفوا على الضنك. ولكن المصريين يعدون البحر على وجه العموم مادة غريبة وفائضة، وليس جزءا (أصليا من الكون) أو عنصرا ما، بل إفرازا فاسدا معتلا.

٨- لم تحوِ شعائرهم أي شيء غير معقول، أو خيالي، أو خرافي، كما يعتقد بعض الناس، ولكن لبعضها أسساً خلقية وعملية، بينما لا يفتقر بعضها الآخر إل مغزى تاريخي أو طبعي كالمسألة المتعلقة بالبصل مثلا. فلا يمكن مطلقا تصديق الرواية التي تقول بأن ديكتوس ربيب الآلهة إيزيس سقط في النهر، وغرق فيه إذ كان يناهز[٦] حزمة بصل. ولكن الكهان يعرضون عن البصل، ويمقتونه ويحرصون على تجنبه

[٦] النهز التناول باليد، والنهوض للتناول، وقد ناهزت الشيء وانتهزته تناولته من قرب وبادرته... الإفصاح ص ٧٣٠.

لملاحظتهم أنه النبات الوحيد الذي ينمو، ويترعرع في خسوف القمر. ولا يوائم أيضا الصيام أو الأعياد، ففي ذاك يثير العطش، وفي تلك يدمع العين. وعلى هذا النحو يعد المصريون الخنزير حيواناً غير مقدس، إذ يظهر أنه يميل جدا إلى مضاربة أنثاه في خسوف القمر، ولأن أجسام أولئك الذين يشربون لبنه يظهر عليها البرص، والجرب ذو البثر. أما القصة التي يرويها الكهان، عندما يعترون الخنزير مرة كل عام في تمام القمر وفحواها أن توفون إذ كان يطارد حلوفا في ضوء البدر عثر على الصندوق الخشبي الذي كان يحوي جثة أوزيريس، فمزقها إربا، ثم بعثرها– فلا يقبلها جميع الناس، لأنهم يعدونها ككثير غيرها من الروايات التي سمعها الكهان، وفهموها خطأً.

ويروون أكثر من ذلك أن القدماء كانوا يعرضون عن الترف والبذخ، ورغد العيش حتى إنهم أقاموا في الهيكل الذي في طيبه لوحة نقشوا عليها لعنات صبوها على رأس مليكهم مينيس، لأنه كان أول ملك أخرج المصريين من حياة شحيحة فقيرة بسيطة. ويروي أيضاً أن تخناكتس والد بكخوريس، وقد جرد حملة على البدو، وتأخر عنه متاعه أتى في نهم شديد على كل ما وجدته يده. ثم غرق في سبات عميق فوق فراش من القش، ومن ثم هام بحياة الشظف حتى إنه صب لعنته على مينيس، وأمر بعد موافقة الكهان أن تنقش لعنته على تلك اللوحة.

٩– وكان الملوك يختارون من بين الكهان، أو من طبقة المحاربين،

وكان هؤلاء من أجل بسالتهم، وأولئك من أجل حكمتهم يتمتعون بتقدير موفور، واحترام بالغ. ولكن كان الذي يختار من بين المحاربين يرسم كاهنا على الفور، وكان يسمح له بالاشتراك في فلسفتهم التي كانت غالبا مشمولة بسر من الأساطير، والقصص التي لم تقدم إلا صورا خفية من الحقيقة، وأسناء منها كما كانوا يبينون في جلاء ووضوح أن تعاليمهم الدينية كانت حكمة غامضة. وكان المصريون أنفسهم يشيرون إلى هذا بما كانوا يشيدون بطريقة رشيدة من تماثيل بوحول (بو الهول) أمام معابدهم. فعرش الإلهة أثينا في سايس التي يعتقدون أنها هي إيزيس عينها يحمل النقش (الصوفي) الآتي "أنا كل ما كان، ويكون، وسيكون، وما من بشر فان رفع عني ردائي بعد".

وأخيراً يرى جمهرة الناس أن أمون، وهو من نسميه محرفا أمون، اسم لزيوس عند المصريين. ولكن مانثون السمنودي يعتقد أن هذا اللفظ معناه "الخفي" أو "الإخفاء" بينما يقول هيكتايوس الأبديري: إن المصريين يستعملون هذا التعبير فيما بينهم كلما نادوا واحداً، إذ أن هذا اللفظ لفظ نداء. فكانوا يطلقونه على الإله الأول، وهو في اعتقادهم الكون نفسه، وهو مستتر خفي وذلك ما كانوا ينادونه، ويتوسلون إليه أن أظهر لنا، واستبن ما أعظم حكمة المصريين الخاصة بتعاليمهم الإلهية.

١٠- يشهد على ذلك أيضا أحكم الأغارقة أمثال سولون، وطاليس، وأفلاطون، ويودكسوس، وفيثاغورس، وفيما يقال لوكورجوس

أيضا، ممن وفدوا على مصر، واختلطوا بالكهان؛ إذ استمع يودكسوس لتعاليم خنوفيس الممفيسي، وسولون لسونخس الصاوي، وفيثاغورس لا ينوفيس الهليوبوليسي، وغالب الظن أنهم أعجبوا بفيثاغورس أيما إعجاب، وكم أعجب هو كذلك بالكهان حتى إنه قلد طريقتهم الرمزية الغامضة، فشمل تعاليمه بثوب من الطلاسم؛ إذ ليس ثمة فرق في الواقع بين معظم مبادئ الفيثاغوريين وما يسمى بالكتابة الهيروغليفية. هاك أمثلة "لا تأكل على عربة- لا تجلس فوق المكيال- لا تزرع نخلة- لا تقلب النار بالسيف في البيت". وأنا نفسي أيضا أعتقد أن تسمية الفيثاغوريين أبو للون بالوحدة، وارتميس بالتثنية، وأثينا بالتسبيع، وبوسيدون بالمكعب الأول تشبه ما رسموه بالمعابد (المصرية) وفعلوه ودونوه. فهم يكتبون (اسم) مليكهم، وسيدهم أوزير بعين، وصولجان- ويفسر كثير من الناس هذا الاسم "بذي العيون الكثيرة" على أن معنى "أوز" بالمصرية "كثير" و"إيري" "عين"- ويرمزون للسماء التي لا تهرم أبدا لخلودها [بالصّل].

وفي طيبة أقيمت تماثيل قضاة قطعت أيديهم، وقد أغمض قاضي القضاة عينيه لأن العدالة لا ترتشي، ولا يدنو منها أحد. ويحمل المحاربون جعلا منقوشا على خواتمهم، وليس ثمة أنثى للجعل، إذ كل الجعلان ذكور" وهذه تفرز منيها في شيء مستدير، وليس اهتمامها

بإعداد الزاد أقل من اهتمامها بإعداد مكان تربي فيه صغارها[٧].

١١- ولذلك إذا ما سمعت "ياكليا" ما يحكيه المصريون عن الآلهة، عن جولانهم، وتمزيق أجسادهم، وعن كثير من مثل هذه الآلام وجب عليك أن تتذكري ما ذكرناه من قبل، وأن تعتقدي بأن لا شيء مما يحكى قد حدث، ووقع فعلا على النحو الذي روى به فهم مثلا لا يطلقون على هرميس، أذكى آلهتهم، اسم "الكلب" بل يصفونه بأمانة هذا الحيوان؛ ويقظته وفطنته، ذلك الحيوان الذي يميز- كما يقول أفلاطون[٨]- بين الصديق الذي يعرفه والعدو الذي يجهله. ولا يعتقدون أيضا أن إله الشمس هليوس يخرج وليدا من زهرة البشنين، ولكنهم يصورون شروق الشمس على هذا النحو كناية عن اشتعال الشمس من الرطوبة. وكذلك أوخوس أقسى ملوك الفرس وأفظعهم الذي أعدم الكثيرين، ثم ذبح العجل آبس في النهاية، وأكله هو وخلانه- هذا الملك كانوا يلقبونه- "بالسيف" وما زالوا حتى اليوم يسمونه بهذا الاسم في قائمة الملوك ولاشك أنهم لا يقصدون بذلك "طبيعة" الملك، بل يشبهون قسوة خلقه بإحدى آلات الاغتيال. فإذا أنتِ أصغيت على هذا النحو إلى التعاليم الإلهية، وتقبلتها من أولئك الذين يفسرون القصة

---

(٧) لا يذكر هبفنر (**Hoppfner**) هذه العبارة في ترجمته الألمانية: ( **Plutarch Uber Isis und Osiris**) المجلد الثاني، ص ٩، بينما وردت في ترجمة بابيت (**Babbitt**) الإنجليزية (**Moralia V**) طبعة لويب **Loeb** ص ٢٩.

(٨) الجمهورية ٣٧٥هـ.

تفسيرا دينيا فلسفيا؛ وإذ أنتِ راعيت دائما العادات الدينية مراعاة دقيقة، وكنت في نفس الوقت تعتقدين بأنك لن ترضي الآلهة بأي قربان تقدمين، أو أي عمل تعملين بقدر ما ترضينهم بالإيمان بهم– إذا أنتِ فعلتِ ذلك، فسوف تتجنبين الخرافة التي هي شر لا يقل عن الإلحاد.

١٢– هاكِ القصة أرويها لك موجزة أشد ما يكون الإيجاز، بعد أن حذفت منها كل ما لا يفيد أو ما لا لزوم له:

يحكى أن "ريّا" كانت على صلة "بخرونوس"، فلما لاحظ هليوس (إله الشمس) ذلك صب عليها هذه اللعنة "ليتها لا تستطيع الوضع في أي شهر أو أي عام!" ولكن هرميس كان متيما بالآلهة، وكان يعاشرها. فلما لعب النرد مع إلهة القمر (سلينا)، وكسب منها ما يبلغ $\frac{1}{70}$ من كل يوم تسطع فيه جمع كل الأجزاء، فحصل على خمسة أيام أضافها إلى الثلاثمائة والستين يوما (أي أيام السنة). وما زال المصريون يسمون هذه الأيام الخمسة حتى اليوم "بالأيام الإضافية"، ويحتفلون بها أعياد الميلاد الآلهة.

ويروون أن أوزيريس ولد في اليوم الأول، وأن صوتا دوّي في هذه الدنيا ساعة ولادته يقول: "ها هو رب كل شيء يخرج إلى النور". ويروي بعضهم أن شخصا يدعى باموليس كان ينزح ماء في طيبه، فسمع هاتفا يخرج من معبد زيوس أمره أن يعلن على الملأ بصوت جهوري أن ملكا عظيما خيّرا هو أوزيريس قد وُلد، وأن خرونوس عهد به إليه، فتكفّل به،

وأنه أقام عيد "الباموليا" تمجيداً له، وهذا العيد يشبه عيد (الإخصاب). وفي اليوم الثاني ولد "أروأيرس" الذي يسميه البعض أبو للون، وهورس الأكبر. وفي اليوم الثالث ولد توفون، ولكن في غير أوانه، ومن غير الموضع الصحيح إذ انطلق وهو يشق جنب (أمه). وفي اليوم الرابع ولدت إيزيس بأصقاع رطبة، وفي اليوم الخامس ولدت نيفثوس التي كانوا يطلقون عليها "تليوتا" (النهاية) و"افر وديتا" ويسميها بعضهم أيضا "النصر".

ويروى أيضا أن أوزيريس، وأرو أيرس أنجبهما هليوس "إله الشمس" وأن إيزيس أنجبها هرميس، وأن توفون، ونيفثوس أنجبهما خرونوس. ومن أجل ذلك عدّ الملوك ثالث الأيام الإضافية يوماً نحساً، لم يؤدوا فيه أي عمل، وكذلك لم يعنوا فيه بأجسادهم حتى يدلهمّ الليل. ويحكون أن نيفثوس تزوجت من توفو. أما إيزيس، وأوزيريس فقد عشق أحدهما الآخر قبل ولادتهما، واقترنا وهما في رحم أمهما، ويزعم بعضهم أن أروأيرس كان ثمرة هذا الاقتران وكان المصريون يسمونه "هورس الأكبر" والإغريق "أبو للون"[٩].

١٣– وما إن استوى أوزيريس على العرش حتى انتشل المصريين من حياة الحرمان والتوحش، فعلمهم كيف يزرعون الحب، وسن لهم القوانين، وعلمهم تبجيل الآلهة. وبعد ذلك طوف بالأرض كلها ليمدن

---

(٩) وردت هذه العبارة في ترجمة بابيت **Babbitt** ص ٣٥.

أهلها دون ما حاجة إلى استعمال السلاح، وإنما كان يستميل معظم الشعوب إليه بالإقناع والتهذيب، ويسحرهم بجميع ألوان الغناء والموسيقى. ولهذا يعتقد الإغريق أنه شبيه بالإله ديونوسوس.

ويروى أن توفون لم يجسر في أثناء غياب أوزيريس على إحداث الشغب، إذ كانت ايزيس غاية في اليقظة، استطاعت أن تسيطر على زمام الأمور كلها. ولكن لما عاد أوزيريس إلى وطنه دبر له توفون مؤامرة غادرة، فجمع شرذمة من اثنين وسبعين رجلا ليكونوا شركاء له في الجريمة. وكانت تؤازره ملكة حضرت من ايثيوبيا كان المصريون يدعونها "أسو". وقاس توفون جسد أوزيريس خلسة، وصنع له صندوقا فخما جميل الزينة، وأمر بإحضاره إلى الوليمة. ولما سر الضيفان جميعهم لمنظر هذا الصندوق، وأعجبوا به وعد توفون مازحا بأنه سيجعل منه هدية لمن يجد الصندوق مناسبا لجسمه، يملؤه تماما وهو ممتد فيه. فجربه الضيفان جميعا الواحد تلو الآخر. ولما لم يطابق أحداً منهم نزل أوزيريس به، وامتد فيه. فأهرع إليه المتآمرون. ووضعوا الغطاء عليه، وأغلقوه من الخارج بمسامير، وصبوا عليه قصديرا مصهورا، وبعد ذلك حملوا الصندوق إلى النهر، ودفعوا به في الفرع "الثاني" إلى البحر. ومن أجل هذا مازال المصريون حتى اليوم يكرهون هذا الفرع، ويعدونه بغيضا لعينا. ويقولون: حدث هذا في السابع عشر من شهر هاتور (١٣ من نوفمبر) عندما تدخل الشمس برج العقرب، وكان ذلك في العام الثامن والعشرين

من حكم أوزيريس، ولكن بعضهم يزعم أنه عاش هذه السنين، ولم يتول الحكم فيها.

١٤- ولما كان بان، وجماعة الساتورووي الذين كانوا يقطنون في المنطقة المحيطة بخميس أول من علم بهذا الحادث، ونشر النبأ على الملأ لذلك مازال هلع الناس وذعرهم المفاجئ يسمى حتى اليوم باسم "بان"(١٠). ولما بلغ الخبر إيزيس نزعت على الفور إحدى غدائرها، وارتدت ثياب الحداد في ذلك المكان الذي تقوم فيه حتى اليوم مدينة كوبتو (قفط). ولفظة "كوبتو" معناها في رأي بعض الكتاب "الحرمان" لأن "يحرم" معناها باليونانية "**koptein**" (كوبتين) وأخذت الإلهة تجول في كل مكان، وقد استبد بها الألم، وما اقتربت من أحد حتى خاطبته، وأخيرا صادفت جماعة من الأطفال، فسألتهم عن الصندوق. وتصادف أنهم رأوه، فأخبروها عن الفرع الذي دفع فيه رفاق توفون بالصندوق إلى البحر. ومن أجل هذا يعتقد المصريون أن للأطفال مقدرة على العِرَافة، ويحاولون أن يتكهنوا بالمستقبل من الفؤول التي يسمعونها في كلامهم وبخاصة عندما يلعبون في الهياكل، ويصيحون بما يرد في خواطرهم.

ويقولون أيضا: إن إيزيس لما علمت أن أوزيريس قد (دخل) بأختها نيفثوس خطأ، واعتقد أنها إيزيس نفسها، ولما رأت إيزيس "إكليل

---

(١٠) فكلمة **panic** في الانجليزية معناها **Sudden and infectious** والفرنسية **panique** والألمانية **Panik** مشتقة من اسم بان **Pan**.

الملك" الذي تركه عند نيفثوس أخذت تبحث عن الطفل الذي وُلد من هذا (الاتصال)، إذ هجرته أمه بمجرد أن ولدته خوفا من توفون. فلما وجدته إيزيس بعد لأي شديد، وجهد جهيد، وقد كانت الكلاب ترشدها (في بحثها)، ربته، وأصبح حارسها، ورفيقها، وسمته انوبس. وقال: إنه كان يحرس الآلهة كما تحرس الكلاب البشر.

١٥- ثم علمت إيزيس أن الصندوق قد ألقت به الأمواج على الشاطئ بجوار بوبلوس، ثم دفعت به في رفق عند شجرة أثل. ونمت هذه في زمن وجيز نموا رائعا، وعظيما للغاية، وأحاطت بالصندوق، ونمت حوله، و(بذلك) حجبته في جذعها. وأعجب الملك بضخامة الشجرة، وقطع الجزع الذي يكتنف الصندوق بعيداً عن الأبصار، وجعل منه عمودا يدعم سقف داره.

ويقولون: إن إيزيس علمت هذه الأمور بوحي من الشائعات المقدسة. فذهبت إلى بوبلوس، وجلست آسية باكية عند عين ماء، ولم تكلم أحدا إلا وصيفات الملكة، فقد لاقتهن لقاء حسنا جميلا، ورجلت لهن شعورهن، وطيبت أجسادهن بطيب عجيب ينبعث منها. فلما رأت الملكة حال وصيفاتها تاقت إلى معرفة تلك الإنسانة الغريبة التي كان شعرها، وجسمها يتضوعان عنبرا. فاستدعتها الملكة، وأنزلتها مُنزلا حسنا، وجعلتها مربية لطفلها. ويقولون: وكان ملك هذه البلاد يسمى مَلكا ندروس، وكانت الملكة تسمى في إحدى الروايات استراتا،

وسأوسس في رواية أخرى، ونمانوس في رواية ثالثة، وكانت تسمى عند الإغريق أثينايس.

١٦- ويحكون أن إيزيس كانت ترضع الطفل بوضع إصبعها في فمه بدلاً من ثديها. وكانت تحرق في الليل أجزاء جسده الفانية بينما صارت هي ذاتها يمامة أخذت تحوم حول العمود ناحبة نادبة إلى أن لاحظت الملكة ذلك، فصرخت صرخة مدوية، إذ رأت طفلها في النار، وبذلك سلبته الخلود بمسلكها هذا. حينئذ أماطت الإلهة اللثام عن شخصها، وطلبت العمود الذي يدعم السقف. ونزعت جزع الشجرة بدون أدنى مشقة؛ وقطعته ولفته في ثوب من التيل، وصبت عليه طيبا، ثم أودعته رعايا الملك، والملكة. وما زال أهل بوبلوس حتى يومنا هذا يبجلون ذلك الخشب الذي أودع معبد إيزيس. ثم ارتمت على التابوت، وصرخت صراخا عاليا حادا أودى بحياة ابن الملك الأصغر في الحال. أما الابن الأكبر فقد أخذته معها، ووضعت التابوت في زورق، وغادرت البلاد. ولما بعث نهر فايدروس فجر ذلك اليوم بريح صرصر عاتية حنقت الإلهة (لذلك)، وجففت مجراه.

١٧- وما إن بلغت مكاناً منعزلا، واختلت بنفسها وحدها حتى فتحت التابوت، وجعلت محياها على محيا الجثمان، وقبّلته، وأجهشت بالبكاء. وبينما كان الطفل يسير خلفها في هدوء لاحظ ذلك. فأحست الإلهة به، والتفتت إليه وحَدَ جَته بنظرة غضب مروعة؛ فلم يحتمل الطفل

هذا الهلع، وقضى. ولكن بعضهم الآخر ينكر تلك الرواية، ويؤكد أنه انقلب في اليم على النحو سالف الذكر (الفصل الثامن). ولكنه نال شرفاً عظيماً بفضل الإلهة، لأنه هو نفسه، على ما يقال، مانروس الذي يتغنى المصريون به في ولائمهم. غير أن بعضهم يقول: إن اسمه بالستينوس أوبيلوسيوس، وأن تلك البلدة التي أسّستها الإلهة (بيلوسيمُ) سميت باسمه. ويحكى أيضاً أن مانروس موضع أغانيهم كان أول من ابتدع الموسيقى. ولكن بعضهم الآخر يقول: إن هذا اللفظ ليس اسماً لأحد بل هو مصطلح يردده القوم في أحفال السُّكر، والأعياد، ومعناه: "ليت هذه الحال السعيدة تدوم لنا". ذلك ما كان المصريون يعنونه دائماً بكلمة مانروس، كلما نطقوا بها. وعلى هذا النحو كانوا يطوّفون بتمثال ميت يجعلونه في صندوق، ويعرضونه على المدعوين لا ليكون في ذلك ذكرى لمصير أوزيريس- كما يزعم كثيرون- بل ليحضوهم على اغتنام الحاضر، والاستمتاع به، إذ سرعان ما يغدو الناس جميعاً على تلك الحال (كتمثال الميت)، ومن ذلك جاءوا بهذا الشيء البغيض إلى مجلس السُّمار.

١٨- ولما ذهبت إيزيس إلى ابنها هورس الذي كان يربى في بوتو، ووضعت الصندوق في مكان قصي، عثر توفون عليه إذ كان يصيد ليلا في ضوء القمر، وتعرّف الجثة، ومزقها أربع عشرة قطعة بعثرها في كل حدب وصوب، إلا أن إيزيس علمت ذلك، فأخذت تبحث عن الأشلاء، وهي تُجري زورقاً من البردي في المستنقعات. لهذا السبب لا تصيب

التماسيح ركّاب هذه الزوارق بأي أذى أو سوء: إما لأنها تخاف، أو لأنها تبجل هذه الإلهة. ومن أجل ذلك يُقال: إن ثمت أضرحة كثيرة لأوزيريس بمصر، لأن إيزيس كانت تبني ضريحاً حيثما عثرت على جزء من أشلائه. وينكر بعض الكُتّاب هذه الرواية القائلة بأن إيزيس صنعت لأشلائه صوراً، وأهدتها إلى مختلف البلدان كأنها أعطتها الجثمان (الحقيقي) حتى يصيب تكريماً أعظم، وحتى ييأس توفون، إذا ما انتصر على هورس، من العثور على ضريح "أوزيريس" الحقيقي، وذلك عندما يذكرون كثيراً من الأضرحة، ويدلونه عليها.

ولقد عثرت إيزيس على كل أعضاء أوزيريس إلا عضو التذكير فلم تجده إذا ألقى به على الفور في النهر، فأكله السمك اللبيس، والمرجان، والكراكي، ذلك السمك الذي يصدف المصريون أشد الصدف عن أكله؛ ولكن إيزيس صنعت نسخة (منه) مكانه، وقدست (هذا العضو) الذي مازال المصريون حتى اليوم يقيمون له عيداً.

١٩- ثم عاد أوزيريس من العالم الآخر إلى هورُس، وأعده للقتال ودرّبه. ثم سأله عن أجمل الأشياء قاطبة. فلما أجاب هورس: أن ينتقم المرء لأبيه وأمه إذا أساء إليهما أحد، سأله أوزيريس مرة ثانية عن الحيوان الذي يعده أجدى لمن يخوض غمار الحرب. فلما قال هورس "الحصان" دهش أوزيريس لهذا، وسأله: لِم لم تذكر السبع، وذكرت الحصان؟ فقال هورُس: إنما يفيد السبع أولئك الذين هم في حاجة إلى النجدة، بينما يفيد الحصان

في تشتيت العدو الهارب، وقطع دابره. فلما سمع أوزيريس ذلك سر سروراً عظيما إذ أصبح هورس ذا إعداد كافٍ. ويقال كذلك: إن ثويوس، سرية توفون، لما أخذ كثير من المصريين ينضمون إلى هورس، انضمت هي إليه أيضاً، وإن ثعباناً كان يتعقبها، فمزقه أنصار هورس إرباً؛ ومن أجل ذلك ما زال القوم حتى اليوم يلقون حبلا وسطهم، ويقطعونه إرباً.

ثم نشب القتال أياماً عدة كان النصر فيها حليف هورس. وقد تسلمت إيزيس توفون المصفد بالأغلال، ولكنها لم تقتله، بل فكت إساره، وأطلقت سراحه. فأحفظ هذا هورس، ورفع يده على أمه، وأطاح بالتاج الملكي من فوق رأسها بيد أن هرميس وضع مكانه على رأسها قلنسوة في شكل رأس البقرة. ولما اتهم توفون هورس علانية بأنه ولد منبوذ قضى الآلهة، والفضل في ذلك لهرميس، بأن هورس ولد شرعي. ثم هُزم توفون في وقعتين أخريين. وقد نكح أوزيريس إيزيس عقب وفاته، فأنجبت منه هاربوكراتيس قبل الميعاد، فولد ضعيف الساقين.

٢٠- تلك هي تقريباً الموضوعات الهامة في الأسطورة بعد أن حذفت منها أبغض الحوادث كتخبيل بدن هورس، وبتر رأس إيزيس... وثمت مسألة ليست بي حاجة إلى أن أذكرها لك: إذا ارتأى الناس مثل هذه الآراء، وحكوا مثل هذه الحكايات عن طبيعة المباركين المخلدين (وبناء عليها نصوغ فكرتنا عن الألوهية) كأن هذه الفعال، والأحداث حدثت فعلا

"كانت الحاجة ماسة إلى البصق، ثم تطهير الفم بعد ذلك"

كما يقول أيسخولوس. ولكنكِ في الحق تبغضين أولئك الذين يرتأون في الآلهة مثل هذه الآراء الشاذة، والغريبة. وسوف تدركين أنتِ نفسكِ أن ليس ثمت شبه ألبته بين هذه القصص، وغيرها من الروايات المفككة، والرقع الجوفاء التي ينسجها الشعراء، وكتاب النثر من ذواتهم نسج العناكب، الذين ينسجون أفكاراً فطيرة[١١] فجة، وينشرونها، وسوف تدركين أن هذه تحتوي سرداً لحوادث، وتجارب معينة تحير الألباب. وكما أن قوس قزح– حسب رواية الرياضيين– انعكاس للشمس، وأن عديد ألوانه مرده أننا نحسر بصرنا من الشمس، ونثبته على السحاب، كذلك لا تكون تلك الروايات الخيالية التي قصصت هنا سوى انعكاسات لقصة حقيقية ترد أفكارنا إلى أمور أخرى، وتشير أضاحيهم إلى ذلك في وضوح إذ تعكس الأسى، والحزن؛ وإلى ذلك يشير تصميم معابدهم، فتخرج من بعض أجزائها أجنحة، وأبهاء مجهية[١٢]، منكشفة، وتحتوي في أجزائها الأخرى على حجرات سرية للملابس تضرب في الدياجير تحت الأرض، وتشبه الخلوات أو المزارات؛ ولا يقل أهمية عن ذلك رأي يرتئيه القوم في محاريب أوزيريس الذي يقال عنه إن جسده مدفون في جهات شتى كثيرة. فيقولون. إن ديوخيتيس اسم بلدة صغيرة

(١١) الرأي الفطير– هو الذي لم ينعم النظر فيه ولم يجد. الإفصاح ص ٨٨.

(١٢) بيت أجهي ومجهي– لا سقف عليه ولا ستر. هجي البيت هجيا وجهي انكشف واجهيته كشفته. الإفصاح، ص ٢٦٣.

يطلقونه عليها لأنها تحتوي وحدها على ضريحه الحقيقي، وإن أثرى الناس وأوسعهم نفوذا من بين المصريين يدفنون عادة في أبودوس. إذ أن محط آمالهم أن يدفنوا بتلك الأرض التي تضم رفات أوزيريس، ولكنهم يقولون: إن (العجل) آبس يربى في ممفيس، وإنه صورة لروح أوزيريس، وإن جثمانه يرقد في هذه المدينة. ويفسر بعضهم اسمها "بمُرسى الصالحين" ويسميها البعض الآخر، وهو على حق "ضريح أوزيريس". ويقولون أيضاً: إن الجزيرة القريبة من فيلاي محرم على الإنسان بتاتاً أن يطأها، أو يقترب منها، ولن تحط الطير عليها أبداً، ولن يدنو السمك منها، ولكن الكهان يعبرون (النهر) إليها في آونة خاصة ليقرّبوا القربان، ويضعوا الأكاليل على ضريح (أوزيريس) الذي تظلله شجرة بزّت في طولها طول أي شجرة زيتون.

٢١- ويقول يود كسوس: ومع أن القوم يذكرون أضرحة عديدة (لأوزيريس) في مصر إلا أن جثمانه راقد في بوزيريس، لأن هذه المدينة مسقط رأسه؛ وليست بنا، مع ذلك، حاجة إلى شرح تافوسيريس، إذ أن هذا الاسم ذاته يعني ضريح أوزيريس"؛ وسأمر مر الكرام على عادات كسر الخشب (هناك)، وتمزيق التيل، وسكب سائل القربان، لأن كثيراً من هذه (العادات) تتعلق بالتعاليم السرية. ويقول الكهان مع ذلك: إن أجساد هؤلاء، وأجساد باقي الآلهة أيضاً، الذين لا يولدون، ولا يفنون، ترقد عندهم، ويمجدونها؛ و(يقولون): إن أرواحهم تتألق، مع ذلك، في

النجوم بالجوزاء. ويسمى الإغريق روح إيزيس "كلب الجبار"، ويسميه المصريون سوثِس، وأوريون هو روح هورس، والدب الأكبر روح توفون. ويقولون: إن باقي (المصريين) يشتركون في تكاليف جنازة الحيوان المقدس المتفق عليها، اللهم إلا أهل إقليم طيبة، فلا يسهمون بشيء فيها، لأنهم لا يؤمنون بأن أي فان[١٣] يكون معبوداً، بل يؤمنون بالإله كنيف الذي لا يولد، ولا يفنى.

٢٢- ولما كان الفرس يحكون كثيراً من أمثال هذه الأمور (عن أعمال الآلهة، ومآسيهم، ومماتهم) ويلمعون إليها، فإن البعض يعتقدون أن المقصود بهذه الأمور أعمال الملوك، والطُّغاة الذين انتحلوا لأنفسهم مظهر الآلهة من أجل فضائلهم، أو سلطانهم، أو علو قدرهم، ثم استسلموا بعد ذلك لمشيئة القدر، ولم يبق لهم سوى ذكرى أعمالهم المفيدة الهائلة. وبهذا يجردون (هذه القصة) من مغزاها (الحقيقي)، وينجحون إلى حد ما في أن يزيلوا عن الآلهة كل ما هو شائن، ويلقون به على البشر، يجدون لهم في ذلك سنداً أكيداً في الأقاصيص، والروايات: فيروى المصريون أن هرميس كان ذا مرفقين مقوستين، وأن توفون كان أمغر البشرة، وأن هورس كان أنصعها، وأن أوزيريس كان أدكنها، كما لو كانوا في طبيعتهم من فُناة البشر. وكذلك يدعون أوزيريس القائد، وكانوبس الربان الذي تسمى باسمه الصورة النجمية، وكذلك السفينة التي

(١٣) مثل أوزيريس، وإيزيس، وهورس، وسيث.

يسميها الإغريق آرجو، وهي في شكلها شبيهة بسفينة أوزيريس جُعلت له بين الصور النجمية، وتجرى غير بعيدة عن مجرى الجبار (أي أوريون)، و"كلب الجبار" وهما صورتان سماويتان يعد المصريون إحداهما مقدسة لهورس، والأخرى لإيزيس.

٢٣- ولكني أخشى أن أحرك ما لا ينبغي أن يحرك، وأن "أعلن حربا"- كما يقول سيمونيديس- "لا على أجيال متعاقبة"، بل "على أجناس عديدة من البشر" تكن شعوراً بالورع، والتقوى لهؤلاء الآلهة، وأخشى ما أخشاه أن ننزل مثل هذه الأسماء العظيمة من السماء إلى الأرض. وأن نزيل، ونفسد إيمانا عميقا غُرس في نفوس الناس أجمعين تقريبا ساعة ولادتهم، وأن نفتح الأبواب على مصاريعها لجمهور الملحدين، وأن نهوي بالمقدسات إلى مستوى البشر وأن نبيح في يسر تام تُرهات يو أميروس المسيني، فقد ألف هذا الرجل كتبا في أساطير مضللة، لا وجود لها في الواقع، ونشر بذلك الإلحاد في كل زمان بجميع أنحاء المعمورة إذ مسخ جميع الآلهة الذين نؤمن بهم، واستبدل بأسمائهم جميعاً ألقاب قواد وأمراء بحار وملوك يزعم أنهم عاشوا في غابر الزمان، ودونت أخبارهم بحروف من ذهب في جزيرة بنخن. ولم يحدث أن رآها بربري (أي أجنبي)، أو يوناني اللهم إلا يو أميروس وحده الذي قام فيما يبدو برحلة بحرية إلى البنخويين والترفولين الذين لم يعيشوا في العالم قط، ولا يعيشون.

٢٤- ومع ذلك فإن الأشوريين يمجدون الأعمال العظيمة (للملكة) سميرامس، والمصريين يشيدون بمآثر سسوستريس. ويدعو الفريجيون حتى اليوم الأعمال الباهرة العجيبة أعمالا مانيسية لأن مانيس، أحد ملوكهم الأوائل، والذي كان يسميه البعض "ماسديس" كان رجلا شهما جسورا. وقاد كورس (قورش) الفرس، والكساندروس (الاسكندر) المقدونيين من نصر إلى نصر حتى كادا يبلغان أطراف الأرض، ومع ذلك فإنهما لم يشتهرا إلا كملكين كريمين، "ولكن إذا كان هناك قوم- كما يقول أفلاطون- قد اضطر موا بنار الزهو، وتلطخت نفوسهم بالكبر"، وأضفوا على أنفسهم ألقاب الآلهة، وأمروا بتشييد الهياكل لهم، فلن يزدهر مجدهم سوى زمن قصير، ثم يوصفون بالكذب والاحتيال:

"طاروا سراعا، يجرفهم مصيرهم، كدخان يتصاعد في عنان السماء".

وتراهم اليوم بعد أن طردوا من هياكلهم، وموائد قربانهم، كأنهم هاربون مغلوبون لا يمتلكون سوى شواهد وقبور. ومن أجل ذلك كان انتيجونوس الأكبر يقول عندما قرظه شخص يدعى هيرمود وتوس في إحدى قصائده، ووصفه بأنه إله، ابن إله الشمس.. كان يقول: "إن العبد المنوط به مبولتي لا يعرف شيئا من هذا!" وكذلك كان المثال لوسببوس على حق عندما اعترض على المصور أبليس الذي صور الاسكندر، ووضع في يده صاعقة، بينما صوره هو نفسه، ووضع في يده رمحا. فهذا مجده الحقيقي الذي لن يمحوه الزمان.

٢٥- وخير "من هذا" رأى أولئك الذين لا يعدون ما يحكى عن توفون، وأوزيريس، وإيزيس من مصير الآلهة والبشر، بل هو من مصير الجن. ويبين أفلاطون وفيثاغورس، وكسنوكراتيس وخروسيبوس الذين نسجوا على منوا لعلماء اللاهوت الأوائل أن الجن أقوى من البشر، وأنهم بقوتهم العظيمة يفوقون طبيعتنا إلى حد بعيد، ولكن العنصر الإلهي نقيا غير مخلوط لا يدخل في تركيبهم، بل إنهم يجمعون بين طبيعة الروح المعنوية، وقدرات الجسد الحسية، وهم يشعرون باللذة والألم، وتعتبريهم جميع الانفعالات التي تحدث نتيجة لهاتين الحالين المتغيرتين، وتؤثر هذه الانفعالات فيهم تأثيرا يختلف باختلاف الجن الذين يتعرضون لها. فالجن كالبشر على درجات متفاوتة من الفضيلة، والرذيلة. ففي الحق لا تختلف أعمال المردة، والتيتانيس المجيدة التي يشيد بذكرها الإغريق، وأعمال كرونوس المستبدة، واستماتة بوثون في مصارعة أبو للون، وفرار ديو نوسوس، وجولان ديميتر.. لا يختلف كل هذا في شيء عن أعمال أوزيريس، وتوفون، أوسائر الأساطير التي يود الإنسان سماعها، ويمكن قول ذلك تماما عن كل ما هو مشمول برداء من الشعائر، والأحفال السرية، وكل ما لا يدركه عامة الناس، وكل ما لا يرونه.

٢٦- ونسمع هوميروس أيضا يصف الخيرين بأنهم "أشباه الآلهة"، و"أنداد الآلهة"، ويسميهم "الذين وهبهم الآلهة حكمة من عندهم"، ولكنه يطلق الصفة المشتقة من الجن (أي جِني) على الصالح والطالح على حد سواء. فيقول مثلا:

"تعال، يا جني، تعال. لِمَ تخيف الأرجيين كل هذا الخوف؟"

ويقول أيضاً.

"ولما هاجمه للمرة الرابعة اندفع نحوه كالجن"

وفي (موضع آخر):

"أيتها الجنية أي شر ما حق أنزله بك برياموس، وأبناؤه حتى تتوق نفسك بلا هوادة إلى تدمير طروادة الجميلة؟"

وذلك لأن الجن ذوو طبيعة، وإرادة مشوبتين غير متزنتين.

لذلك ينسب أفلاطون إلى الآلهة الأولومبية صفات يمينية، وإعدادا فردية، وإلى الجن أضدادهما بينما يعتقد كسنوكراتيس أن الأيام النحس، والأعياد التي يحدث بها جَلد، أو لطم على الصدور، أو صوم، أو قول نابٍ، وفاحش أيامٌ، وأعياد لا تناسب تكريم الآلهة أو الجن (الطيبين) ولكن توجد بالفراغ (الذي حولنا) طبائع شديدة وقوية، بيد أنها في الوقت نفسه خبيثة كئيبة تبتهج لأمثال هذه الأشياء، وإذا ما تحققت لها فإنها لا تلجأ إلى ما هو شر منها. ثم يسمى هيسيودوس الجن النافعين الطيبين "الجن المقدسين الطاهرين"، و"حراس البشر"... و"المكثرين[١٤]، ولهم في ذلك شرف ملكي" .

---

(١٤) المكثرة الغنى– أو الكثرة. والتكثير– كثرت الشيء جعلته كثيرا، وأكثرت يا هذا أتيت بكثير. الإفصاح ص ٧٣٤.

ويدعو أفلاطون هذه الفئة "التراجمة، والوسطاء بين الآلهة، والبشر لأنها تحمل ضراعات البشر، وتوسلاتهم إلى السماء، ثم تأتي منها بالردود الإلهية والهبات إلى الأرض". وأخيراً يقول امبدوكليس: يجب أن يعاقب الجن على ما يرتكبون من أخطاء، وآثام، فيقول:

"إن قوة الهواء تطاردهم إلى البحر المحيط ثم يلفظهم البحر المحيط على الساحل، ثم تبعثهم الأرض إلى أشعة الشمس المستمرة، فترسلهم إلى أعاصير الهواء:

وهكذا يتلقفها أحدهم من الآخر، وكلهم كاره".

حتى إذا تأدبوا استعادوا ثانية هذا المكان، وذلك المقام اللذين خصصتهما الطبيعة لهم.

٢٧- ويقال: إن الأقاصيص التي من هذا القبيل، وغيرها تروى عن توفون؛ فيحكى أنه أتى بالموجبة[١٥] بدافع من غيرته، وخبثه، وأنه بعث بالفوضى في كل شيء، وملأ الأرض جميعا، والبحر المحيط بالشرور، ثم جوزي على ذلك جزاء وفاقا. وبعد أن أخمدت أخت أوزيريس، وزوجه جنون توفون، وقضت على خبله انتقاما لأوزيريس لم تنس الصراع والنضال اللذين تحملتهما، ولم ترغب في أن يظل جولانها، وأعمالها العديدة السديدة الباسلة نسيا منسيا، أو طي الكتمان، بل بينما مزجت

(١٥) الموجبة- الكبيرة من الذنوب التي يستوجب بها العذاب وقد أوجب الرجل أتي بها. الإفصاح ص ١٢٠.

صورا، وإشارات ونسخا من أحداث ذلك الوقت بالشعائر الدينية ضربت درسا دينيا في التقوى، وكذلك مثلا في العزاء للرجال، والنساء الذين وقعوا في مثل هذا الشقاء. وقد صارت هي، وأوزيريس إلهين من أجل فضائلهما بعد إذ كانا جنين خيرين، كما حدث لهيراكليس وديونوسوس فيما بعد. ومن أجل ذلك حق لهما أن يتمتعا بتكريم مزدوج؛ فيكرمان إلهين، ويكرمان جنين في الوقت ذاته، وينشران سلطانهما في كل مكان، وخاصة في العالم الآخر، ولذا يقال: إن سرابس ما هو إلا بلوتون، وإن إيزيس هي برسيفونا، وذلك وفقا لرواية ارخيماخوس اليوبي، وهيراكليديس البنتي اللذين يعتقدان أن وحي كانوبس هو وحي الإله بلوتون.

٢٨- رأى بطلميوس سوتير (أي المنقذ) في حلم تمثالا عظيما أقيم في سنوبا للإله بلوتون، وكان يجهل شكله، لأنه لم يره قبل ذلك قط. فأمره التمثال بأن ينقله على وجه السرعة إلى الإسكندرية. وكان حينئذ خالي الذهن، ويجهل أمره، لا يعرف أين كان يوجد هذا التمثال. ولكنه عندما قص رؤياه على خلانه اهتدوا له على شخص رحالة اسمه سوسبيوس، أكد أنه رأى في سنوبا مثل هذا التمثال العظيم الذي قال الملك إنه رآه. لذلك بعث بطلميوس سوتيليس، وديونوسوس إلى "سنوبا" فوفق هذان الرجلان بعد زمن طويل، وجهد جهيد- وفقا بعون إلهي إلى أن يسرقا التمثال (من معبده) وينقلاه. فلما وصل (التمثال إلى الإسكندرية)، استنتج تميثيوس، ومانثون، وأتباعهما أنه تمثال بلوتون..

استنتجوا هذا من وجود كربيروس، والتنين الذي بجانبه[١٦]، وأقنعوا بطلميوس بأنه ليس إلا تمثال الإله سرابس. إنه في الواقع لم يحمل هذا الاسم عندما نقل من هناك "من سنوبا"، بل سمي بعد نقله إلى الإسكندرية "سرابس" وهو اسم بلوتون عند المصريين. فإذا قال هراكلايتوس الفيلسوف الطبعي: "إن هاديس، وديونوسوس إله واحد يهذون، ويحتفلون من أجله بعيد عصر الكروم" استنتج الإنسان هذا الرأي أيضا. فإن من يعتقد بأن (هاديس) يعني "جسد الروح" لأن الروح تكون فيه غير عاقلة. وسكرى. فما يأتي إلا بكتابة ركيكة ضعيفة. ويحسن التوحيد بين أوزيريس، وديونوسوس، وبين سرابس، وأوزيريس الذي حمل هذا الاسم عندما غير من طبيعته. لذا كان سرابس أيضا إلها مشتركا عند كافة الشعوب، وهذا ما يعرفه أصحاب اللقانة عن أوزيريس.

٢٩- ولا يجدر بالمرء أن يأبه للكتابات الفريجية التي يقال فيها: إن سرابس كان ابنا لهيراكليس، وإن إيزيس كانت أخته، وإن توفون كان ابنا لألكايوس بن هيراكليس؛ ويجدر بالإنسان ألا يحفل أيضاً لكلام فولارخوس الذي كتب عن ديونوسوس أنه أول من جلب من الهند عجلين إلى مصر، أحدهما يسمى آبس، والآخر أوزيريس، ولكن سرابس اسم من ينظم الكون، إذ أن اسمه مشتق من فعل "سايرين (**sairein**) ومعناه في

---

(١٦) كلب وحشي بثلاثة رءوس كان يحرس مدخل العالم السفلي أو مملكة بلوتون، ولذا سمي "كلب هاديس". كان يمنع الأحياء دخول هذا العالم، والأموات الفرار منه.

رأي البعض "يزين" و"ينظم". وعلى ذلك يكون رأي فولارخوس سخيفا، وأسخف منه رأي الذين يقولون: ليس سرابس إلها ألبته، بل إن هذا اسم يسمى به تابوت آبس. وإن في ممفيس بوابات معينة من البرونز تسمى بوابات النسيان والعويل تفتح عند دفن آبس، فتحدث رنينا عنيفا كئيبا، ومن أجل هذا نضع أيدينا على كل إناء من البرونز يحدث رنينا[١٧]. وأكثر اعتدالا رأى أولئك الذين يقولون بأن الاسم مشتق من الفعلين (**seuesthai**) "يندفع" و(**sousthai**) "بتحرك" لدلالة على حركة الكون كله.

ويقول معظم الكهان، إن (اسمي) أوزيريس، وسرابس مدغمان في (اسم) واحد؛ ويفسرون ذلك بأن المرء يجب أن يعلم أن آبس صورة مجسمة لروح أوزيريس. ولكني أرى أن اسم سرابس، إذا كان مصرياً صميما، يعني المرح، والابتهاج معتمداً في ذلك على أن المصريين يدعون عيد المسرات "سيراي" (**Sairei**) وفي الواقع يقول أفلاطون: إن هاديس سمي كذلك لأنه يلطف بأولئك الذين يقيمون عنده. وفوق ذلك عند المصريين أسماء كثيرة أخرى تعني كلمات حقيقية. فيطلقون مثلا على ذلك المكان الذي في أسفل الأرض حيث ترحل الأرواح بعد الموت– كما يعتقدون– لفظة امنثيس، ومعناها "ذلك الذي يأخذ ويعطي". أما أن هذا الاسم هو أحد الأسماء التي جاءت مصر من اليونان

---

(١٧) انظر هيفنر، المجلد الثاني، ص ١٤.

في غابر الزمان، ثم عادت إليه فمسألة سنبحثها فيما بعد؛ إذ ينبغي لنا الآن أن نستمر في مناقشة بقية الآراء التي بين أيدينا.

**٣٠-** صار إذاً أوزيريس، وإيزيس إلهين بعد أن كانا جنيين خيرين، أما قوة توفون التي أضعفت، وسُحقت، والتي تناضل الفناء، والفناء يناضلها، فتارة يحاول المصريون أن يهدئوها، ويستدروا عطفها بتقديم الضحايا، وتارة أخرى يذلونها، ويسبونها في أحفال معينة، وذلك بأن يضطهدوا ذوي البشرة الحمراء، ويدهوروا حماراً من قمة شاهق، كما يفعل أهل كوبتو (قفط)، لأن توفون كان أمغر البشرة في لون الحمار. ولا ينفخ أهل بوزيريس، وأهل لوكوبوليس أبواقاً ألبته، لأنها تحدث صوتاً يشبه نهيق الحمار. ويعتقدون أن الحمار حيوان دنس، وجني لأنه يشبه توفون، وعندما يصنعون طُلمات[١٨] ليقربوها في شهر بؤونة، وبابه (مايو، يونيه، سبتمبر، أكتوبر) يطبعون عليها شكل حمار مقيد. وعندما كانوا يقربون لهليوس (إله الشمس- رع) يوصون أولئك الذين يعبدون هذا الإله بألا يتحلوا بحلي من الذهب، وألا يقدموا علفاً لحمار. وواضح أن أتباع فيثاغورس يعدون توفون من الجن، لأنهم يقولون: إنه ولد في منتصف العدد الزوجي ستة وخمسين، وإن المثلث ينتمي إلى هاديس، وديونوسوس، وآريس؛ والمربع إلى ريا، وأفروديتا، وديميتر، وهستيا، وهيرا؛ وبالشكل ذا الاثنى عشر ضلعاً إلى زيوس؛ والشكل ذا الستة

---

(١٨) الطلمة بالضم الخبزة... مختار الصحاح، ص ٣٩٧.

والخمسين ضلعاً إلى توفون كما يذكر يودكسوس.

٣١- وكان المصريون يقربون لتوفون العجول المُغر، لأنهم كانوا يعتقدون أنه أمغر البشرة. ولكنهم كانوا يفحصونها فحصاً دقيقاً جداً، حتى إنه إذا وجدوا في العجل شعرة واحدة سوداء كانت أم بيضاء (أي غير مغراء) عدوه غير صالح للقربان، فهم لا يرون من المناسب أن يُقرب (لتوفون) ما هو عزيز عند (غيره من) الآلهة، بل على الضد كل حيوان تقمص أرواح الكفرة، والفسقة من البشر الذين صاروا جسوماً أخرى. ولهذا كانوا يصبون اللعنات على رأس الأضحية (المقربة لتوفون) ويبترونه. وقد اعتادوا في الزمان الخالي أن يلقوا به في النهر، أما اليوم فيبيعونه الأجانب. أما العجل المخصص للعتر فيختمه كهان يسمون "سفراجستاي" (**Sphragistai**) أي الختامين بخاتم خاص. وكان خاتمهم في هذه الحال، كما يروى كاستور، يحمل نقشاً لرجل أوثقت يداه خلف ظهره، وقد خر على ركبتيه، وطُعن في حلقه بسكين. ولكنهم يعتقدون أن الحمار- كما قلنا من قبل- يعاني الكثير لما بينه وبين توفون من تشابه، وذلك بسبب غبائه، وشهوته، ولون جلده. ومن أجل هذا لقبوا أوخوس بالحمار لأنه كان في نظرهم أبغض ملوك الفرس جميعاً؛ فما كان منه إلا أن قال: "ولكن هذا الحمار سيبتهج لأكل عجلكم". ثم ذبح العجل آبس، كما يروي دينون. أما أولئك الذين يقولون: إن توفون هرب من القتال (ضد هورس) على ظهر حمار سبعة أيام، وإنه بعد نجاته أنجب

ولدين: هما هيروسولوموس، ويودايوس، فمن الواضح جداً– كما يظهر من الاسمين– أنهم يدخلون على هذه الأسطورة روايات يهودية.

**٣٢**– هذا إذاً تفسير تلك الروايات. ولكننا نود الآن أن نفحص أولا أبسط آراء أولئك الذين يعتقدون أنهم يفسرون الأمور تفسيراً أكثر تفلسفاً:

فكما أن الإغريق يقولون: إن كرونوس اسم يطلق مجازاً على الزمن (خرونوس)، وهيرا على الهواء، وإن هيفايستوس يرمز إلى تحول الهواء إلى نار– كذلك بين المصريين قوم يقولون: إن أوزيريس هو النيل الذي يقترن بالأرض إيزيس، وتوفون البحر الذي يصب فيه النيل مياهه، فيتوارى عن الأنظار، ويتفرق اللهم إلا ذلك الجزء الذي تحتجزه الأرض، وتمتصه، فتصبح به خصبة. وهناك أيضا نُدبة دينية تنشد تمجيداً لخرونوس، ويؤبَّن فيها[١٩] ذلك الذي يولد في مناطق الشمال، ويهلك في مناطق اليمين، لأن المصريين يعتقدون أن المناطق الشرقية وجه العالم، والشمالية يمينه، والجنوبية شماله. ولما كان النيل يجري من الجنوب، ويبتلعه اليم في الشمال، كان معنى هذا حقاً أنه يولد في الشمال، ويفنى في اليمين. ومن أجل ذلك يتجنب الكهان البحر، ويسمون الملح: "لعاب توفون"، ويحرمون وضعه على المائدة. كذلك لا يخاطبون الربابنة ألبته لأنهم يستعملون البحر، ويتعيشون منه. ولنفس

(١٩) انظر هبفنر، المجلد الثاني، ص ١٧، والملاحظة (١).

السبب كانوا ينفرون من السمك أيضاً، ويعبرون عن معنى "الكراهية" برسم سمكة. وفي سايس نُقش على البوابة الخارجية لهيكل أثينا طفل، وشيخ يليهما صقر، ثم سمكة، ثم فرس نهر. ومعنى هذا رمزي "أيا من تولدون، ثم تموتون إن الله يكره القحة". فالطفل رمز الولادة، والشيخ رمز الموت، ويعبر الصقر عن فكرة "الله" والسمكة عن الكراهية من أجل البحر- كما سبق أن ذكرنا- وفرس النهر عن القحة، إذ يقال: إن هذا الحيوان كان يجامع أمه بالقوة بعد أن يقتل أباه. وكذلك عندما وصف أتباع فيثاغورس البحر "بأنه دمعة كرونوس" فلا شك أنهم كانوا يشيرون إلى طبيعته الدنسة الغريبة. ليكن هذا الكلام إذاً مجرد حديث عابر، لأنه يدور حول موضوعات شائعة معروفة.

٣٣- غير أن أحكم الكهان لا يسمون النيل أوزيريس، والبحر توفون فحسب، بل بكل بساطة يعتبرون أوزيريس المنبع الوحيد، والقوة الأزلية التي تولد الرطوبة، وتسبب الخصب، والتناسل. أما توفون في رأيهم فيرمز إلى كل ما هو جاف، وناري، وجدب، وعدو للرطوبة على وجه عام. ولما كانوا يعتقدون أن لون توفون أحمر مصفراً كالنار، لذلك كانوا لا يتحمسون لملاقاة قوم لهم مثل هذه البشرة، ولا يحبون الاختلاط بهم. أما أوزيريس فيرون في أساطيرهم أنه خمري، لأن الماء يصبغ كل شيء من تراب. وملابس، وسحب بلون أدكن إذا ما امتزج به، ولأن وجود الرطوبة بحسوم الشباب يجعل شعرهم أسود بينما يصيب

المشيب رءوس من اكتهلوا، وكأنه شحوب ناجم عن اليبس. والربيع (بسبب الرطوبة) أيضاً مزدهر ومثمر، ولطيف، أما الخريف فهو لافتقاره إلى الرطوبة عدو للنبات، خطر على صحة الكائنات الحية. وكذلك العجل الذي يرعونه في هليوبوليس، والذي يسمونه منيوئس[٢٠] (**Mneuis**)، والذي يقدسونه لأوزيريس أسود اللون، ومرتبته من التكريم تلي مرتبة العجل آبس. وكذلك يسمى المصريون بلادهم من أجل سوادها الذي يشبه سواد إنسان العين "خيمياً" (**Chemia**)، ويشبهونها بالقلب لأنها دافئة، ورطبة، وحبيسة في الجزء الجنوبي من المعمورة، ومقيمة به كالقلب في الجانب الأيسر من جسم الإنسان.

٣٤- ويقولون أيضا: إن الشمس، والقمر لا يركبان مركبات (كما هي الحال عندنا نحن الإغريق)، بل زوارق يبحران بها في مسالكهما (في الرطوبة أي في محيط السماء)، ويلمعون بذلك إلى غذائهما، ونشأتهما من الرطوبة. ويعتقدون أيضاً أن هوميروس مثل طاليس أخذ عن المصريين رأيه في الماء على أنه مصدر لجميع الأشياء وأصلها. فأوكيانوس (اليوناني) هو أوزيريس، وتيثوس هي إيزيس، لأنها مربية كل شيء ومغذيته. فالإغريق يطلقون على إفراز المني "أبوسيا" وعلى المضاجعة "سونوسيا" وعلى الابن "هويوس" من الماء (**hudor**) ومن المطر

(٢٠) يرى البعض أن منيوئس كان والداً لآبس. انظر هبفنر، المجلد الثاني، ص ١٨ الملاحظة (١).

(**husai**)، وكذلك يسمون الإله ديونوسوس هوبس (**hues**) لأنه رب الطبيعة الرطبة، وليس هذا الإله سوى أوزيريس. ويظهر أن هيلاينكوس سمع الكهان المصريين يسمون أوزيريس "هوسيريس" (**husiris**) وهكذا يسميه هو دائماً، وربما كان ذلك نتيجة لطبيعة الإله، أو نتيجة لهذا الاكتشاف.

**٣٥-** أما أن أوزيريس نفسه هو ديونوسوس (إله الخصب عندنا- نحن الإغريق) فمن يعرف هذا أحسن منك "ياكليا، يا رئيسة العذارى في دلفي؟ لقد جعلك أبوك؛ وأمك نذيرة[٢١] لشعائر أوزيريس المقدسة. فإذا كانت هناك حاجة في غيرك من الناس (أي من غير أصحاب اللقانة) إلى أن نسوق الأدلة والبراهين فلندع التعاليم السرية، وشأنها. ولكن ما يفعله الكهان علانية عند دفن آبس عندما ينقلون جثمانه في نعش لا يختلف في شيء عما يحدث في أعياد باخوس، إذ يلفون أنفسهم بجلود الريم، ويحملون صولجانات باخوس، ويصيحون صيحات مدوية، ويهتزون اهتزاز من أخذتهم الجلالة في أحفال ديونوسوس الصاخبة. ومن أجل ذلك أيضا يصور كثير من الإغريق ديونوسوس على شكل عجل، وتتضرع نساء "إليس" إليه أن يدنو منهن بحافر عجل. ويلقب ديونوسوس عند أهل أرجوس "بابن العجل". ويستدعونه من المياه بنعير الأبواق بينما يلقون بحمل من المياه العميقة قربانا لحارس البوابة، ويخفون هذه

(٢١) المحررة والنذيرة- الابن أو الابنة يجعله أبواه قيماً وخادماً للكنيسة. الإفصاح، ص ٧٠١.

الأبواق داخل صولجانات باخوس، كما روى سقراط في مقال عن "الأحفال المقدسة". يضاف إلى ذلك أن حكايات التيتانيس؛ وأحفال باخوس الليلية تشبه ما يروى عن تخبيل بدن أوزيريس، وبعثة، ومولده الجديد. وينطبق ذلك أيضاً على أضرحتهم. فالمصريون– كما ذكرنا آنفا[٢٢]– يشيرون إلى مقابر عدة لأوزيريس، وأهل دلفي يعتقدون أن رفات ديونوسوس موجود عندهم بالقرب من معبد أبو للون حيث يأتي الأتقياء بقربان سري، كلما احتفلت العذارى بميلاد ديونوسوس. ولكن اليونان لا يعدون ديونوسوس إله الخمرة، وخالقها فحسب، بل رب كل مادة رطبة، وخالقها، ويكفينا دليلا على ذلك قول بنداروس:

"ليت ديونوسوس باعث السرور يكثر من ثمار الشجر ذلك السني الوهاج لفصل الحصاد"

ومن أجل هذا حرم على كل من يعبد أوزيريس أن يجتث شجرة ناضرة، أو يردم عين ماء جارية.

٣٦– والكهان لا يسمون النيل وحده سيل أوزيريس، بل يطلقون هذه التسمية على كل أنواع الرطوبة أيضا، لذلك كان إناء الماء يحمل دائماً في طليعة المواكب الدينية التي كانت تقام تكريماً للإله. وفضلا عن ذلك كانوا يصورون الملك، والجزء الجنوبي من العالم على شكل قصبة، وترمز هذه القصبة إلى "ري" كل شيء، "وإخصابه"..................

(٢٢) بالفصلين ١٨ و٢٠.

وعندما يحتفلون بعيد الباموليا وهو كما قلنا من قبل[٢٣] عيد (الإخصاب)، يعرضون تمثالا عاريا يطوفون به (يمثل قوة الإخصاب عند هذا الإله) لأن الإله هو الأصل، وكل أصل يضاعف بقوته الجنسية كل ما يخرج منه. وقد تعودنا أن نعبر عن الكثرة، والمضاعفة بكلمة "ثلاثا"، كقولنا: "سعيد ثلاثا"[٢٤]، وكانت أغلاله عديدة ثلاث مرات، وكانت لا تحصى ولا تعد"[٢٥]، ما لم يقصد الكتاب الأوائل بعبارة "ثلاث مرات" معناها الحرفي. فلما كانت الرطوبة– منذ البداية– مصدر كل شيء وأصله فهي أيضا أصل العناصر الثلاثة الأولى: التراب، والهواء، والنار. والرواية الملحقة بتلك الأسطورة تقول: إن توفون ألقى بعضو من أعضاء أوزيريس في النهر، وإن إيزيس لم تعثر عليه، وقد صنعت له (تمثالا) يشبهه، وزينته. ثم أمرت الناس أن يكرموه، ويحملوه في المواكب– ومن ذلك نفهم أن قوة الإنتاج والتناسل عند الإله اتخذت الرطوبة مادة أولى لها، وأنها بفضل الرطوبة امتزجت بكل ما هو بطبيعته قابل للتناسل.

وهناك رواية أخرى عند المصريين تقول بأن أبوبس أخا هليوس (إله الشمس– رع) أعلن الحرب على زيوس (آمون) فوقف أوزيريس إلى جانب زيوس، وساعده في قهر العدو. ولذلك اتخذه زيوس ابناً له، وسماه ديونوسوس. والآن يستطيع المرء أن يبين أن المعنى الأسطوري

---

(٢٣) بالفصل ١٢.

(٢٤) هوميروس: الإلياذة ٤ و١٥٤.

(٢٥) المرجع ذاته، ٧، ٣٤٠.

**لهذه الرواية قريب من الحقيقة الطبعية (أي إلى شيء طبعي "فيزيكي")؛ فالمصريون يطلقون اسم زيوس (أمون) على النسيم (البليل، أي الذي به برد، وندى) الذي يعاديه كل ما هو جاف، وناري، وليس هذا في الحقيقة الشمس (نفسها) (أي ليس هذا رع نفسه)، ولكن بينه (بوصفه أبوبس)، وبين الشمس علاقة معينة، بينما الرطوبة (أي أوزيريس) بتخفيفها من حدة الجفاف تزيد الأبخرة وتقويها، وبهذه الأبخرة يتغذى النسيم (pneuma– زيوس– أمون)، وينشط.**

**٣٧- وفضلا عن هذا فالإغريق يقدسون اللبلاب، ويهبونه لديونوسوس، ويسمى عند المصريين خنوسيريس (chenosiris)، وهي كلمة يقال: إن معناها "نبات أوزيريس" وقد عثر أريستون الذي كتب عن الاستعمار الأثيني على أحد خطابات الكسارخوس، ورد فيه أن ديونوسوس هو ابن زيوس (أمون– رع)، وإيزيس، وأن المصريين لم يسموه أوزيريس، بل أرسافيس، وهي لفظة معناها الرجولة. وهرمايوس أيضاً يذكر هذا في المجلد الأول من سفره عن [أعياد][٢٦] المصريين، فيقول إن تفسير اسم أوزيريس هو: "الفتى". وإني أغض الطرف عن مناسياس الذي يوحد ما بين ديونوسوس، وأوزيريس، وسرابس، وبين إبافوس، وأغض الطرف أيضاً عن انتكليديس الذي يقول: إن إيزيس كانت ابنة لبروميثيوس، وإنها تزوجت ديونوسوس. فالخصائص التي**

---

(٢٦) انظر هبفنر، المجلد الثاني، ص ٢٠.

ذكرناها آنفاً عن أحفالهم، والأضاحي التي تقرب لهم أكثر إقناعاً، وأشد وضوحاً من أي دليل آخر.

٣٨- ومن بين النجوم يعتقد المصريون أن سيريوس (كلب الجبار) هو نجم إيزيس، لأنه يجلب الماء (أي ماء الفيضان)، ويكرمون أيضاً الأسد (أي برج الأسد)، ويزينون أبواب الهياكل بخطم الأسد لأن النيل يفيض:

"عندما تقترب الشمس من برج الأسد".

وكما أنهم يعدون النيل سيل أوزيريس كذلك يعدون الأرض جسم إيزيس، وليست الأرض كلها؛ بل ما يغمره النيل منها فقط، فيختلط بها، ويعلوها. ومن هذه المعاشرة ينجبان هورس. ولكن هورس هذا هو هورا (**Hora**) (أي الوقت) الذي يصون كل شيء ويغذيه، وهو الهواء المركب المحيط بالأرض. ويقولون أيضا عنه: إن ليتو ربته في المستنقعات المحيطة ببوتو. فالأرض المستنقعة المبتلة أحسن غذاء لتلك الأبخرة التي تنقع الجدب، والجفاف (أي توفون)، وتسكنهما. ولكنهم يطلقون اسم نيفثوس على الأرض النائية التي يجاور الجبال، وتشرف على البحر (توفون). وبذلك كلما فاض النيل، وارتفع، وبلغ تلك الأصقاع البعيدة دعوا ذلك اختلاط أوزيريس بنيفثوس الذي يستدل عليه من نمو النبات. ومن بين هذا النبات "إكليل الملك"[٢٧]، وهو نبات

---

(٢٧) انظر الفصل ١٤.

تروي القصة أنه عندما سقط (عن رأس أوزيريس)، وبقى وراءه، كشف لتوفون عن الجرم الذي اقترف مع زوجه. ثم ولدت إيزيس هورس ولادة شرعية، بينما ولدت نيفثوس أنوبس سراً (في الخفاء). ومع ذلك فقد ذكروا في قوائم الملوك أن نيفثوس كانت أول الأمر زوجاً عقيماً لتوفون، ولكنهم إذا كانوا يحكون ذلك عن إلهة، لا عن امرأة، فإنهم يرمزون بهذا إلى عقم الأرض التام، ومحلها البالغ اللذين ينجمان عن صلابتها.

٣٩- وبذلك ترمز مؤامرة توفون، وطغيانه إلى قوة الجدب التي تتغلب على الرطوبة وتشتت شملها.. تلك الرطوبة التي أوجدت النيل، وأكثرت من مائه، وترمز مساعدته الملكة الايثيوبية "أسو" إلى الرياح الجنوبية التي تهب من ايثيوبيا، إذ كلما تغلبت هذه الرياح على الرياح التجارية التي تدفع بالسحب تجاه ايثيوبيا فتمنع نزول الأمطار التي تسبب الفيضان فإن توفون، وقد بلغ ذروة قوته، ومنتهاها، يحرق كل شيء، ويضطر النيل لضعفه إلى أن يحسر ماءه ويغيض في مجراه، ويجري ضعيفا نحو البحر. وغالب الظن أن حبس أوزيريس في الصندوق قد لا يعني سوى تورية[٢٨] مياه النيل، واحتفائها. ومن ثم يقولون: إن أوزيريس يختفي في شهر هاتور (نوفمبر) عندما يفيض النيل تماما، وتعرى الأرض، وقد كفت الرياح التجارية حينئذ عن الهبوب- هذا من ناحية- ومن ناحية أخرى عندما يزداد الظلام، ويطول الليل، وتخبو قوة الضوء،

(٢٨) رواه تورية أخفاه.

وتضعف. ولذلك يؤدي الكهان طقوسا كئيبة، فيلفون بقرة مذهبة بثوب من التيل الأسود، ويعرضونها بسبب حداد الإلهة أربعة أيام من اليوم السابع حتى اليوم العاشر[٢٩] لأنهم يرون في البقرة، والأرض صورة إيزيس. وهناك أربعة أشياء يندبونها: أولها النيل الذي يتوارى وينحسر، وثانيها الرياح الشمالية، وقد أخمدتها الرياح الجنوبية تماما، وسيطرت عليها، وثالثها أن النهار أصبح أقصر من الليل، وفوق هذا وذاك جرود الأرض، وكذلك تجرد الشجر الذي سقطت عنه أوراقه. وينزل القوم في اليوم التاسع عشر ليلا إلى البحر، ويخرج أمناء الأردية، والكهان منه ذلك الصندوق المقدس الذي يحتوي على علبة صغيرة من الذهب. وينزحون ماء قراحا، ويصبونه فيها، بينما يصيح الحضور (من نشوتهم) هانحن قد وجدنا أوزيريس، ثم يقبضون غرينا خصيبا، ويخلطونه بتوابل زكية، وطيوب فاخرة، وماء، ويشكلون من كل هذا تمثالا صغيرا في هيئة هلال يكسونه، ويزخرفونه، وهم يبينون بذلك أنهم يعدون هذين الإلهين "أوريريس، وإيزيس" مبدأ الماء والأرض.

٤٠- وبعد أن عثرت إيزيس على أوزيريس، وربت هورس الذي تقوى بالبخار، والضباب والسحاب قهر توفون على أمره. ولكن لم يقض عليه، لأن الإلهة التي هي ربة الأرض لا تسمح بأن تفنى المادة الطبعية

---

(٢٩) اقرأ "من اليوم السابع عشر حتى اليوم العشرين" أنظر هبفنر، المجلد الثاني ص ٢٢، الملاحظة "١".

التي تقابل الرطوبة فناء مبرما، بل هي تطلقها ولا تقيدها "ثانية" لأنها ترغب في الإبقاء على العالم إذ يستحيل على الكون أن يكون كاملا إذا ولى العنصر الناري عنه وفنى. وإذا لم يأخذوا بتلك الرواية فلا يجوز لأحد أيضا أن يرفض القصة التي تقول بأن توفون كان يسيطر في سالف الزمان على حصة أوزيريس لأن مصر مازالت "وقتئذ" بحرا. ولذلك يوجد حتى يومنا هذا محار كثير في مناجمها وعلى جبالها، وتحتوي على الينابيع والآبار، وما أكثرها على ماء ملح أجاج، كما لو تجمعت فيها فضالة فاسدة من البحر الذي كان ينساب هناك فيما مضى. ولكن هورس تغلب بمرور الزمن على توفون، وبعبارة أخرى عندما هطلت الأمطار في الوقت المناسب طارد النيل البحر، وتغلب عليه، وكشف عن الوادي، وملأه بالرواسب الغرينية. ودليل على ذلك أننا نلاحظ حتى يومنا هذا أن البحر ينحسر شيئا فشيئا ويغيض ماؤه، وأن القاع يزيد ارتفاعه بسبب الرواسب الغرينية عندما يجلب النهر معه طميا جديدا ويضفيه على الأرض. ونلاحظ أيضا أن جزيرة فاروس التي تغنى هوميورس بأنها تبعد بمقدار رحلة يوم بحرا[٣٠] عن ساحل مصر أصبحت اليوم جزءا منها. وليس معنى هذا أن الجزيرة قد وسعت رقعتها، أو أنها اقتربت (من الأرض) وارتفعت، بل معناه أن البحر الذي كان يفصلهما دفعه النهر أمامه، فشكل (بذلك) الأرض (من جديد) ووسعها.

(٣٠) أي ٧٠٠ ستاد أو ١٣٠ كيلو متراً تقريباً.

[وهذا شبيه بالمبادئ التي كان الرواقيون يعلمونها عن الآلهة: فهم يقولون: إن الروح المخصب المغذى هو ديونوسوس، وإن الروح الشرس الهدام هو هيراكليس، وإن الروح المتقبل هو أمون، وإن الروح الذي يسود الأرض، ومحصولاتها هي ديميتر، وابنتها كورا، وإن الذي يسود البحر هو بوسيدون][٣١].

٤١- ولكن الذين يخلطون بهذه التفسيرات الطبعية (الفيزيكية) شيئاً من علم الفلك يعتقدون أن توفون هو العالم الشمسي، وأوزيريس العالم القمري، لأن القمر ذا الضوء القادر على توليد الرطوبة، والإخصاب يوائم تكاثر الكائنات الحية، ونمو النبات، بينما تلفح الشمس بنارها الحامية القاسية كل ما نما وازدهر وتجففه، وتجعل جزءاً كبيراً من الأرض بوهجها غير صالح للسكنى، وتتغلب على القمر في مناطق كثيرة. ومن أجل هذا يسمي المصريون توفون دائماً سيث، ويعني (هذا الاسم) الطغيان، والغلبة. ويحكون في أساطيرهم أن هيراكليس يقيم في الشمس، ويدور معها، بينما يقيم هرميس في القمر، لأن أعمال القمر تشبه في الواقع أعمال العقل والحكمة. أما أعمال الشمس فتشبه الضربات الصادرة في عنف وقوة. ويقول الرواقيون أيضاً: إن الشمس تشتعل، وتتغذى من البحر، بينما تبعث مياه العيون والغدران إلى القمر بأبخرة لطيفة حلوة.

---

[٣١] العبارات التي بين قوسين عبارات لا تتبع هذا الفصل (٤٠)، بل الفصل (٦٥) انظر هبنر، المجلد الثاني، ص ٢٣، الملاحظة (٣).

٤٢- ويقول المصريون: إن وفاة أوزيريس حدثت في اليوم السابع عشر (من الشهر)، أي في ذلك اليوم الذي يصبح فيه القمر بدراً كاملاً ساطعاً. ومن أجل ذلك يسمى أتباع فيثاغورس هذا اليوم "الحد الفاصل"، ويكرهون جداً هذا العدد، لأنه إذا وقع بين المربع ستة عشر، والمستطيل ثمانية عشر، وهما المساحتان الوحيدتان اللتان يكون محيطاهما مساويين لمسطحيهما، إذا وقع العدد ١٧ بينهما، فإنه يحول بينهما، ويفصلهما الواحد عن الآخر، ويقسمها حسب نسبة خاصة[٣٢] قسمين غير متساويين.

ويقول بعضهم: إن أوزيريس عاش ثماني وعشرين سنة، ويقول بعضهم الآخر: بل حكم مدة هذه السنين، إذ في هذه المدة يسطع القمر، وهي أيضاً المدة التي يتم فيها دورته. ولذلك يقطع المصريون خشباً في الأحفال المسماة بـ "جنائز أوزيريس"، ويصنعون منه صندوقاً

---

(٣٢) تسمى بالإنجليزية (**Epogdoon relation**): وتنقسم هذه المسألة الرياضية قسمين: تفسير القسم الأول منها أن المربع الذي طول ضلعه ٤ يكون مجموع طول محيطه (أي ١٦) مساوياً لمساحته (أي ١٦)، وكذلك يكون مجموع طول محيط المستطيل الذي ضلعاه ٣× ٦ (أي ١٨) مساوياً لمساحته (أي ١٨).

وتفسير القسم الثاني ما يأتي:

$$21\not{6}\,\frac{16}{8} = \quad \times\frac{1}{8}$$،

٢ + ١٦= ١٨

أي أن عددي قسمي هذه المسألة هما ١٦ و١٨؛ وبذلك يكون العدد الفردي ١٧ حداً فاصلا بينهما.

صغيراً هلالي الشكل، ويختفي (أي يموت). ويكنون بتخبيل بدن أوزيريس أربع عشرة قطعة عن الأيام التي يتناقص في أثنائها هذا الجُرم من بدر إلى هلال. ويقولون: إن اليوم الذي يظهر فيه أول مرة من جديد بعد أن يفلت من الأشعة الشمسية، ويمر بالشمس يسمونه "الخير الناقص"، لأن أوزيريس خير، ولأن اسمه في الحقيقة يعني أموراً كثيرة، ولكنه على وجه خاص يعبر عن القوة النشيطة الخيرة. ولكن هرمايوس يقول: إن الاسم الآخر للإله "أومفيس" يعني عند تفسيره "فاعل الخير".

٤٣- ويعتقدون أيضاً أن مظاهر فيضان النيل ذات علاقة معينة بأوجه القمر: فأعلى فيضان له عند الفنتينا يبلغ ثمانية وعشرين ذراعاً، وهذا عدد أيام سطوعه التي يستغرقها في انجاز دورته الشهرية؛ أما أقل فيضان له عند منديس، وخويس (**chois**) فستة أذرع، وهذا يوافق تربيعة الأول، وأن ارتفاع فيضانه المتوسط عند ممفيس (منف) يبلغ- عندما يكون فيضانا عاديا- أربعة عشر ذراعا، وهذا يوافق طلوع البدر. ويقولون أيضاً: إن آبس صورة أوزيريس الحية، وإنما يولد عندما ينطلق شعاع خصيب من القمر، ويهوي على بقرة عشراء ويمسها. ومن أجل هذا توجد أشياء كثيرة في آبس تشبه أوجه القمر؛ فأجزاء جسمه الناصعة تطمسها بقع حالكة. وفوق ذلك يحتفلون في غرة الربيع عند طلوع هلال شهر برمهات (فبراير- مارس) بعيد يسمونه "دخول أوزيريس في القمر". وبذلك يضعون على هذا النحو قوة أوزيريس في القمر، ويقولون: إن إيزيس التي هي مبدأ التناسل تعاشره.

ومن أجل هذا يسمون القمر أم الدنيا. ويعتقدون أن له طبيعتي الذكر والأنثى، فتملؤه الشمس، ويخرج أيضا هو نفسه مبادئ إخصاب في الهواء، ويبذرها. ولن يسود نشاط توفون الهدام، بل ستقهره قوة الإخصاب وتصفده، ثم تخلي سبيله بعد ذلك فيناضل هورس.

ويكون هورس بمثابة الكون الأرضي الذي لا يخلص ألبته من الفناء، أو النشوء.

٤٤- ويعتبر بعضهم هذه الأسطورة إشارة إلى الخسوف: فيخسف القمر إن كان بدرا عندما تقف الشمس قبالته، ويقع هو في ظل الأرض، كما وقع أوزيريس في الصندوق، ومن جهة أخرى عندما يكون القمر هلالا فإنه يحجب الشمس ويخفيها دون أن يقضي عليها قضاء تاماً (مثله في ذلك كمثل إيزيس لم تقض على توفون)[٣٣]. وبعد أن ولدت نيفثوس أنوبس كفلته إيزيس لأن نيفثوس هي كل ما يوجد تحت الأرض، ويكون مرئيا، والدائرة التي تمسها وتسمى الأفق والتي تشتركان فيها تسمى أنوبس، ويرمز إليها بشكل كلب لأن الكلب يرى في الليل، والنهار على السواء. ويظهر أن لأنوبس عند المصريين نفس الصفة التي للإلهة "هيكاتا" عند الإغريق، لأنه أحد آلهة العالم الآخر (السفلي)، وأحد آلهة الأولومبوس أيضا. ويرى بعضهم أن أنوبس هو الزمن، ولذلك

---

(٣٣) العبارة بين قوسين ترجمة لعبارة وردت في نص بابيت ("**Babbitt**") ص ١٠٦، ١٠٧، ولكنها لم ترد في النص اليوناني، انظر هبنر، المجلد الثاني، ص ٢٥، الملاحظة (١).

لما كان يخلق كل شيء من ذاته، ويحمل بها في ذاته سمي الكلب. ومن ثم كانت هناك تعاليم سرية يتعلمها أولئك الذين يمجدون أنوبس. فقد كان الكلب قديما في مصر يحظى بأعظم تمجيد. ولكن قمبيز ذبح العجل آبس، ورماه فلم يدن منه أي حيوان، ولم يأكل منه سوى الكلب، وبذلك فقد هذا الحيوان منزلته العالية، ولم يعد يحظى بأسمى آيات التمجيد دون غيره من الكائنات.

(ولكن هناك قوماً يطلقون اسم توفون على ظل الأرض، حيث ينزلق القمر عندما يصيبه الخسوف)[٣٤].

٤٥- إذن ليس من غير المعقول القول بأن حكم الفرد وحده لا يكون صحيحاً، وبأن حكم الجماعة قد يكون صائباً: فليس الجدب وحده، ولا الريح، ولا البحر، ولا الظلام فحسب، بل (أيضاً) كل خبيث وهدام تحتويه الطبيعة يمكن الإنسان أن يسميه حصة توفون، إذ ينبغي ألا توضع أصول الكون في أجسام عديمة الروح، كما يرى ديموقريط، وأبيقور، وكذلك يجب على الإنسان ألا يزعم كما زعم الرواقيون أن هناك عقلا واحدا فحسب، وعناية واحدة فقط يسودان كل شيء، ويكون لهما عليه سلطان بوصف كل منهما خالقا للمادة الأزلية العديمة الخاصية. ففي الواقع يستحيل على شر ما أن يوجد حيث يكون الله أصل كل

---

(٣٤) هذه العبارة التي بين قوسين تكرار لا محل له هنا. انظر هبفنر، المجلد الثاني، ص ٢٥، والملاحظة (٣).

شيء، ولا يستطيع خير أن يوجد حيث لا يكون الله أصل أي شيء. إذ أن تآلف الكون في رأي هيراقليط شبيه بمرونة أوتار العود، أو القوس، ويقول بوريبيدس:

"لا يمكن الخير والشر أن ينفصلا، ولكنهما يختلطان ليصبحا شيئاً جميلا".

ومن أجل ذلك ورد عن الأحبار[٣٥]، والشارعين إلى الشعراء والفلاسفة مبدأ قديم ضارب في القدم، ولا نعرف أصل نشأته، راسخ، قوي في إقناعه سائد بين الأجانب والإغريق ليس بالكلام والروايات فحسب، بل بالشعائر والقربان. فحواه أن الكون لا يدور دورانا متزنا من تلقاء ذاته بلا فكر أو عقل أو توجيه، وأن ليس هناك فكر واحد يتحكم فيه، ويوجهه كما لو كان يفعل ذلك بدفة، أو لجام، بل إن هناك كثيراً من الأمور امتزج فيها الخير والشر، وأنه لا يوجد شيء ذو طبيعة دنيوية لم يختلطا فيه؛ فليس على المرء أن يعتقد أن هناك خالقا واحدا يخلط لنا الأشياء كأني بها سائلان في دنين على طريقة البياعين، بل يحدث ذلك نتيجة لوجود مبدأين متعارضين، وقوتين متضاربتين، إحداهما تسير (بنا) في طريق مستقيم وإلى اليمين، بينما تدفعنا الأخرى وتقودنا في طريق مضاد. فإذا لم تكن الحياة كلها، والكون بأسره خاضعين لجميع التغيرات المختلفة المتباينة فإن عالمنا هذا الذي تحت القمر يكون خاضعا لها.

---

(٣٥) الأحبار جمع حبر. والحبر العالم من علماء الديانة مسلما كان أو ذميا. الإفصاح، ص ٨٣.

فإذا لم يكن ثمة شيء لا مبدأ له ولا أصل، وإذا استحال على الخير أن يقدم مبدأ الشر، فلا بد من أن تحتوي الطبيعة على أصل الشر ومبدئه، كما تحتوي على أصل الخير ومبدئه.

٤٦- وعلى هذا الرأي أغلب الناس وأحكمهم، لأنهم يعتقدون أن هناك إلهين متناحرين، أحدهما بارئ الخير، والثاني صانع الشر؛ ويسمى البعض أولهما "إلها"، والآخر "جنيا"، كما يسميهما الحكيم زوروا ستريس الذي عاش قبل حرب طروادة بخمسة آلاف سنة فقد سمى زورواستريس أحدهما "هورومازيس" (**Hormazes**) والآخر "أرايمانيوس" وقال أيضا: إن "هورومازيس" يشبه من بين المدركات النور شبها كبيرا، بينما يشبه أرايمانيوس الظلام والجهل، ويتوسطهما ميثراس؛ ومن ثم يطلق الفرس على ميثراس اسم "الوسيط". وقد علم "زورواستريس" أيضا الناس أن يقربوا لأحدهما قرباناً للضراعة والشكران، وللآخر قربانا عاصما كئيبا. ويسحقون نباتا معينا يسمى أمومي في هاون، ويضرعون إلى هاديس وإلى الظلام، ثم يمزجونه بدم ذئب عتير[٣٦] ويحملون هذا المزيج إلى مكان لا تضيئه الشمس أبدا، ثم يلقونه فيه. فهم يعتقدون أن من النبات ما ينتسب إلى الإله الخير، وأن منه ما ينتمي إلى الجني الخبيث، وكذلك الحيوان، فمنه الكلاب والطير والقنافذ البرية تنتمي إلى الإله الخير،

(٣٦) "العتر".. و"العتيرة" بوزن الذبيحة شاة كانوا يذبحونها في رجب لآلهتهم. مختار الصحاح، ص ٤١٠.

بينما تنسب الفئران المائية إلى الجني الخبيث، ولذلك يعتبرونه محظوظا ذلك الذي يقتل منها عدداً غفيرا.

٤٧- ولكنهم يحكون أساطير كثيرة عن الآلهة مثل هذه. إن هورومازيس الذي نشأ من أطهر نور، وأرايمانيوس الذي خرج من الظلام يتناحران. وإن هورومازيس خلق ستة آلهة، أولهم خالق الرحمة، وثانيهم خالق الحقيقة، وثالثهم خالق النظام الوضعي، وأما الثلاثة الآخرون فأحدهم خالق الحكمة، والثاني خالق الثراء، والثالث خالق اللذات الطيبة الشريفة. ولكن أرايمانيوس خلق لهم خصوما يساوونهم عدداً. وحينئذ زاد هورومازيس من حجمه ثلاثة أضعاف، وابتعد عن الشمس ابتعاد الأرض عنها، ورصع السماء بالنجوم، وجعل (من بينها) نجما يدعى سيريوس حارسا عليها وديدبانا. وبعد أن خلق أربعة وعشرين إلها آخرين وضعهم في بيضة. ولكن الآلهة الذين خلقهم أرايمانيوس، وكانوا بعدد الآلهة الآخرين، نقبوا البيضة من جميع [جوانبها، وانسربوا فيها، وامتزجوا بهم] فاختلط الشر بالخير، ومازال مختلطا. بيد أنه سيحين زمن يعينه القضاء والقدر سيموت أرايمانيوس فيه حتما بهذا الوباء، وتلك المجاعة اللذين أوجدهما هو نفسه، ويتوارى تماما عن الأنظار، وستصبح الأرض حينئذ سهلا مستويا، وستحتوي لوناً واحداً من الحياة، وصورة واحدة من الحكومة، ولساناً واحداً لبشر مباركين. ولكن ثيوبومبوس يقول: وبناء على قول الحكماء يسود بالتبادل مدة ثلاثة آلاف سنة أحد هذين

الإلهين، ويصبح الآخر تحت سيطرته، ثم يقتتلان ثلاثة آلاف سنة أخرى ويتحاربان، ويفنى كل منهما أعمال الآخر، وفي آخر الأمر سيقضى على هاديس، وسيغتبط البشر (حينئذ) بينما لا تكون بهم خصامة إلى طعام، ولا يلقون أي ظل. وإن الإله الذي دبر كل هذه الأمور سيتعطل بعد ذلك، وسيستريح وقتاً ليس في الحقيقة بالطويل بالنسبة على إله، لأنه لا يزيد على الوقت المعقول الذي ينامه الإنسان، تلك إذن طبيعة الأساطير التي يرويها الحكماء.

٤٨- ويقول الكلديون إن من بين الكواكب التي يسمونها "بالإلهة الحارسة"(٣٧) إلهين للخير، وآخرين للشر، وثلاثة آخرين من طبيعة مشتركة بين الخير والشر معا، ومتوسطة بينهما. أما معتقدات الإغريق فمعروفة لكل إنسان، فهم يجعلون نصيب زيوس الأولمبي الجانب الخيّر، ونصيب هاديس الجانب البغيض. ويروون في أساطيرهم أن آريس وأفروديتا أنجبا "الوئام"، وأن الأول كان فظا محباً للخصام، وأن الثانية كانت وديعة مسالمة. وأعلمي، يا كليا، أن فلاسفتهم موافقون على كل هذا؛ فيسمي هيراكليتوس القتال بصراحة والد الأشياء كلها، ومليكها، وربها. ويقول عن هوميروس: إنه عندما يتمنى زوال الخصام بين الآلهة، وبين الناس، يسب بذلك- دون أن يدري- أصل جميع الأشياء، لأنها

(٣٧) أو: يقول الكلديون إنهم يسمون الآلهة بأسماء الكواكب التي ينسبون إليها وإن من بين هذه الآلهة.. انظر:

Meunier, M., Isis et Osiris, Paris, 1926, p. 152.

تنشأ من القتال والبغضاء، وإن الشمس لن تجتاز أبداً الحدود المخصصة لها، وإلا اكتشفت أمرها "الأرينويس" (**Erinues**) اللاتي تسهرن على حماية "العدالة". ويطلق إمبدوكليس على المبدأ الخير اسم الوداد والحب؛ وغالباً ما يسميه "الوئام ذا النظرات الوديعة"، بينما يسمى مبدأ الشر "الصراع المشئوم"، و"الخلاف الدامي". ويعبر أتباع فيثاغورس عنهما بألفاظ أخرى: فيسمون مبدأ الخير "الوحدة"، و"المحدود"، و"الدائم"، و"المستقيم"، و"الفرد"، و"المربع"، و"المتساوي"، و"الأيمن"، و"الساطع"؛ ويسمون الشر "التثنية"، و"غير المحدود"، و"المتحرك"، و"المنحنى"، و"الزوجي"، و"المستطيل"، و"غير المتساوي"، و"الأيسر"، و"المظلم"؛ ويعنون بذلك أن على هذين المبدأين (المتعارضين) قامت الخليقة. ويطلق أنا كساجوراس أيضاً عليهما (مبدئي) العقل، واللانهائية، ويطلق أرسطو على أحدهما الصورة، وعلى الآخر الحرمان، ومع أن أفلاطون يخفي رأيه ولا يوضحه، إلا أنه في مواضع عديدة يسمى أحد المبدأين المتعارضين المطابق، والآخر المخالف. ولكنه عندما نضج تفكيره، وكتب "القوانين" لم يعد يلغز أو يرمز، وأكد في عبارة واضحة أن الكون لا يحركه روح واحد، بل ربما أكثر من روح، وعلى وجه التأكيد لا أقل من روحين أحدهما خالق الخير، والثاني مخالف له وهو صانع الشيء المخالف. ثم يضع بينهما أيضا طبيعة ثالثة ليست عديمة الروح ولا عديمة الحركة من تلقاء ذاتها، كما يتوهم بعضهم، بل تكون قائمة على الروحين الآخرين، وترغب دائماً في الخير، وتتوق إليه وتتأثره.. كما

سيوضح الجزء التالي من البحث الذي سيعقد الصلة بين تعاليم المصريين الدينية، وهذا الرأي الفلسفي.

٤٩– إن خلق العالم، وتركيبه ناتج في الحقيقة من قوتين متعارضتين، ليستا متكافئتين في الشدة، ولكن تكون لخير القوتين الغلبة. بيد أن القضاء على الشر أمر مستحيل إذ أنه تغلغل في جسم الكون، وفي روحه كذلك، وأنه في صراع مستمر مرير مع الخير. ففي الروح يوجد الذكاء والعقل؛ والعقل هو أوزيريس سيد كل ما هو خير ومرشده، أما الشيء الرتيب الثابت مما هو في الأرض، والأجواء والمياه والسماء والنجوم، والشيء السليم المعافى في فصول السنة، ودرجات الحرارة، ومرات الدوران، ودورات الحياة– كل هذا سيل أوزيريس، وصورته المرئية. أما توفون فهو الجانب الشهواني، والهوائي، والغبي، والسخيف من الروح، وهو ذلك الجزء من الجسد الذي هو زائل وسقيم، وكذلك القحط والعواصف، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، كأني بكل هذا اعتداء توفون وانطلاقه من عقاله.

وهذا ما يعنيه اسم سيث الذي يطلقونه على توفون، إذ يعني "القهر" و"العدوان"، ولكنه يعني أيضا في كثير من الأحيان "القهقري" و"الكر". ويروي بعضهم أن أحد رفاق توفون كان يسمى ببون. ولكن مانيثون يقول: إن ببون هو توفون نفسه. ويعني هذا الاسم "الكبح"، أو "الإعاقة"، لأن قوة توفون تعترض الأشياء التي تسير في طريقها الصحيح، والتي تتقدم نحو الهدف المنشود.

٥٠- ومن أجل هذا يخصونه من بين الحيوانات المستأنسة بالحمار، وهو أغباها، و(يختصونه) من بين الوحوش بأشرسها، وهما التمساح، وفرس النهر. أما الحمار فقد تكلمت عنه آنفا (في الفصل ٣٠)و يشيرون في هرموبوليس إلى تمثال توفون على هيئة فرس النهر يقف على ظهره باشق يصارع ثعبانا. ويشيرون بفرس النهر إلى توفون، وبالباشق إلى الغلبة والسلطان اللذين اكتسبهما توفون قسرا. واللذين لا يكف أبدا عن استخدامهما بخسة لإثارة نفسه، وإثارة غيره. ومن أجل ذلك يرسمون عندما يقربون لها القربان في اليوم السابع من شهر طوبه (ويوافق اليوم الثاني من شهر يناير) ذلك اليوم الذي يسمونه يوم "وصول إيزيس من فينيقيا"- يرسمون على الطلمة (المقدسة) شكل فرس النهر محكم القيد. وفي أبوللونوبوليس شنشنة عامة هي أن يأكل الناس جميعا، وأن يصيدوا في يوم معين أكثر ما يمكن من التماسيح، ويذبحوها ويلقوا بها أمام المعبد؛ ويقولون: إن توفون قد أفلت من هورس بأن صار تمساحا، بينما يعدون كل خبيث وضار من حيوان، ونبات، وأعمال من صنع توفون، وأعضاء جسمه، وحركاته.

٥١- وهم يكتبون (اسم) أوزيريس بعين وصولجان، ويدل أحدهما على الحذر، والآخر على القوة؛ ومثلهم في ذلك كمثل هوميروس[٣٨] عندما سمي زيوس ملك كل شيء، والحاكم "الأعلى"، و"المستشار"

---

(٣٨) الإلياذة: ٨، ٢٢.

يبدو أنه كان يعني بكلمة "الأعلى" قوته، وبكلمة "المستشار" تبصره وحكمته. ويكتبون غالبا (اسم) هذا الإله كذلك على هيئة باشق، إذ أن هذا الطائر لا يباري في حدة بصره، وسرعة طيرانه، كما أنه يستطيع أن يعيش على النزر اليسير من الطعام. ويحكى أيضا أنه في أثناء حومانه فوق جثث ملقاة من غير دفن يلقى بالتراب في عيونهم. وكذلك إذا ما حط عند النهر ليرتوي فإنه يرفع ريشه عاليا، فإذا ما فرغ من الارتواء خفضه ثانية، ويبرهن بهذه الحركة على أنه نجا بحياته، وأنه قد أفلت من التمساح، لأنه إذا اقتنص ظل ريشه مرفوعا كما كان.

ويعرضون في كل مكان تماثيل أوزيريس وهو في صورة آدمية (عارياً)................................ ويلبسون تماثيله رداء براقا ساطعا، لأنهم يعدون الشمس جسما مرئيا لقوة الخير. وهي حكمة لا تدرك إلا بالعقل. لذلك كان غير مجد أن يهتم المرء بأولئك الذين يختصون توفون بدائرة الشمس، إذ لا ينتسب إليه أي شيء منير، أو صحي، أو أي إنتاج، أو حركة ينتظمها الاعتدال والعقل، بل كان ما يخالف ذلك. وكذلك الجدب، واللفح اللذان يهلك بهما حيوانا، نباتا كثيرين يجب على الإنسان ألا يعدهما من عمل الشمس، بل عمل الرياح، والمياه، وذلك لاختلاطهما في الأرض، والهواء قبل الأوان عندما تجور قوة الفوضى الضاربة التي لا تحد وتطفئ الأبخرة.

٥٢- وفي أناشيدهم الأوزيرية المقدسة يضرعون إلى ذلك الذين

هو خبئ في ذراعي (إله) الشمس (أي هليوس) وفي اليوم الثلاثين من شهر أبيب (ويوافق اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو) يحتفلون بعيد ميلاد عيني هورس عندما يقع القمر، والشمس على خط مستقيم، لأنهم لا يعدون القمر فحسب بل الشمس أيضا عن هورس ونوره. وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر بابه (ويوافق اليوم العشرين من شهر أكتوبر (يحتفلون بعيد ميلاد عصا (إله) الشمس (أي هليوس) عند الاعتدال الخريفي. ويعنون بذلك أن إله الشمس في حاجة إلى سند وتقوية لأنه وقد انثنى وانحنى لافتقاره إلى الدفء والنور، يبعد عنا. وفوق ذلك يطوفون إبان الانقلاب الشتوي (٢٣ ديسمبر– ٢٧ كيهك) ببقرة حول معبد هليوس سبع مرات، ويسمى هذا التطواف "البحث عن أوزيريس" لأن الإلهة في فصل الشتاء تتوق إلى الماء، وهم يطوفون هذا القدر لأن الشمس تتم انتقالها من الانقلاب الشتوي إلى الانقلاب الصيفي (٢١ يونيو) في الشهر السابع. ويقال أيضا: إن هورس بن إيزيس أول من كان يقرب لإله الشمس قربانا في اليوم الرابع من الشهر (أي الشهر بشنس– ٢٩ ابريل أو بؤونة– ٢٩ مارس) كما هو مدون في السجلات التي عنوانها أعياد هورس. ويقربون كل يوم ثلاثة قرب من البخور لإله الشمس: قربان القلفونية عند الشروق، والمر عند الظهيرة، وما يسمونه "كفي" عند الغروب، ولكل من هذه القرب الثلاثة سبب سأذكره فيما بعد (في الفصل ٧٩) ويظنون أنهم بكل هذه يستميلون الشمس، ويمجدونها.

ولكن ما الحاجة إلى جمع مثل هذا العدد الكبير من الأشياء؟ هناك فئة من الناس تزعم أن أوزيريس ما هو إلا الشمس، ويسميه الإغريق كلب الجبار (سيريوس **Sirius**)، وإن إضافة الأداة إلى هذا الاسم عند المصريين (**o**) أدت إلى شيء من الغموض. وهناك من يقول: ليست إيزيس سوى إلهة القمر. ويقال من أجل ذلك: إن تماثيلها ذات القرنين نسخ من الهلال. وإن في تماثيلها ذات الرداء القاتم يستبين المرء استتارها، واحتجابها عندما تلاحق إله الشمس (أي أوزيريس) اشتياقا وحنينا. ومن أجل ذلك يضرعون إلى إلهة القمر (أي إيزيس) في غرامياتهم، ويقول يودكسوس: إن إيزيس هي التي تقرر مصير هذه الأمور. وقد تكون آراء هؤلاء القوم من الاحتمال بمكان، ولكن ليس جديرا بالإنسان أن ينصت لأولئك الذين يجعلون من توفون إلها للشمس. والآن فلنرجع ثانية إلى موضوعنا الأصلي (الحقيقي).

٥٣- إذاً تكون إيزيس الجزء المؤنث من الطبيعة، والمتقبلة كل صور التناسل؛ ومن أجل ذلك يسميها أفلاطون "المربية اللطيفة" و"المتقبلة لكل شيء"، ويسميها معظم الناس "صاحبة الأسماء التي لا تحصى" لأنها بقوة العقل (لوجس) تستطيع أن تتقبل كل أنواع الأشكال والصور. فحبها فطري نحو (الكائن) الأول والأعلى الذي هو الخير نفسه، وإلى هذا (الكائن) تتوق، وإياه تلاحق. أما الشر فتأبق منه، وتلفظه عن نفسها. ومع أنها تكون لهما بمثابة وعاء للنمو ومادة له، إلا

أنها تميل دائما إلى خيرهما، وتجعله ينتج منها، ويلقحها بفيوضه، وصورته التي تبتهج بها، وتطير فرحا عندما تحمل المخلوقات في بطنها. فالخلق صورة الوجود في المادة، والمخلوق يشبه صورة الموجود.

٥٤- فليس من الغريب إذاً أن يرووا في أساطيرهم أن روح أوزيريس خالدة وغير فانية، ولكن توفون يخبل جسده مرارا ويبيده، فتبحث إيزيس عنه جائلة، وتركت أجزاءه ثانية. فذلك الموجود (حقا)، والمدرك، والخير أقوى من الفناء والتغير. والصور التي يشكل منها المدرك، والمجسد، والأفكار، والأشكال، والمتشابهات التي يتخذها لنفسه لا تدوم كصور الأختام في الشمع، بل يصيبها الاضطراب والارتباك (في هذا العالم) بعد أن هوت من أعلى عليين لتتصارع مع هورس الذي ولدته إيزيس ليكون صورة للكون المدرك (بالحس). ومن أجل ذلك يقال: إن توفون قاضاه على أنه ولد منبوذ[٣٩]، غير نقي، ولا صاف كأبيه، ذلك العقل الذي هو في ذاته غير مخلوط، وبسيط، ولكنه مشوب في مادته بسبب العنصر الجسدي، إلا أن هورس يتغلب، وينتصر بمساعدة هرميس، أي العقل الذي يشهد، ويبين أن الطبيعة، إذ تغير من شكلها في الجانب المدرك، تلد الكون (المدرك بالحس). فإنجاب هذين الإلهين بينما كانا في بطن أمهما ريا، وبعبارة أخرى ميلاد أبو للون من إيزيس، وأوزيريس، يرمز إلى أن هذا العالم قبل أن يكون مرئيا، وقبل

(٣٩) المنبوذ- ولد الزناء والأنثى نبيذة- الإفصاح، ص ١٣٩.

أن يشكل العقل المادة في صورتها النهائية، خبرتها الطبيعة فأنجبت من تلقاء نفسها الميلاد الأول ناقصا. وهذا هو السبب الذي يقول المصريون من أجله: إن هذا الإله قد وُلد في الظلام مقعدا، ويسمونه هورس الشيخ. فلم يكن ثمت عالم حينئذ اللهم إلا طيف العالم الذي سيكون.

**٥٥-** أما هورس (الآخر) هذا فكامل وتام؛ ولكنه لم يقض على توفون قضاء مبرماً، إنما اغتصب نشاطه وقوته. ومن أجل ذلك يقولون: إن تمثال هورس في كوبتو (قفط) يمسك في إحدى يديه عورة توفون. ويحكون عن هرميس أنه انتزع شرايين توفون، وجعلها أوتاراً لعوده، ومن ذلك يعلم الإنسان أن العقل (لوجُس) نظم الكون، وجعل من الأجزاء المتنافرة أجزاء متآلفة، وأنه لم يقض على القوة الهدامة، بل شلها، وتصبح هذه (القوة الخبيثة) ضعيفة وهنانة في هذا العالم، وتتصل بالعناصر الحساسة المتغيرة، وترتبط بها، فتحدث الزلازل، والهزات الأرضية، والأمحال، والرياح المعصفات في الهواء، وكذلك الحرور[٤٠]، ووميض البروق، وقصف الرعود. وكذلك تصيب المياه، والرياح بالوباء، وتُصعد وتتعالى حتى (تبلغ) القمر، فتعكر غالباً سطوعه، وتطمسه؛ ويعتقد المصريون ويحكون أن توفون تارة يصفع هورس على عينه، وتارة ينزعها ويلتهمها، ثم يردها ثانية إلى هليوس (رع). ويرمزون بالصفع إلى تناقص القمر كل شهر، وبالإعماء (التام) إلى خسوفه الذي تعالجه

---

(٤٠) الحرور- الريح الحارة.. الإفصاح، ص ٤٧٣.

الشمس (أي هليوس) عندما تسطع عليه تماماً، وهو يفلت من ظل الأرض.

٥٦- ولكن خير الطبيعتين، وأقدسهما تتركب من ثلاثة أجزاء هي: المدرك (العقلي)، والمادي، وما يتكون منهما، وهو ما يسميه الإغريق بالكون. ولقد اعتاد أفلاطون أن يسمي المدرك (العقلي) المثل، أو النموذج، أو الوالد؛ والمادي الوالدة، أو المربية، أو مقر الخلق ومحله؛ وما ينتج منهما كليهما بالنتاج، والخليقة؛ ويحتمل أن المصريين يقدرون أجمل المثلثات قاطبة (أي المثلث القائم الزاوية)، لأنهم يشبهون به طبيعة الكون تشبيهاً تاماً؛ ويبدو أن أفلاطون أيضاً في "جمهوريته" قد استغل هذا المثلث ليعبر به عن الزواج بصورة هندسية. ففيه الضلع القائم مكون من ثلاث وحدات، وقاعدته من أربع، ووتره من خمس (وحدات طولية)، وقوة هذا الوتر (أي مربعه) تساوي قوة الضلعين الآخرين (أي مجموع مربعيهما). [ولذلك يمكن الإنسان أن يشبه الضلع القائم بالذَّكر، والقاعدة بالأنثى، والوتر بنتاج الاثنين]؛ ويعتبر أوزيريس الأصل، وإيزيس المتقبلة، وهوريس النتاج الكامل (فالعدد) ثلاثة أول عدد فردي تام، وأربعة مربعٌ أحد ضلعيه العدد الزوجي اثنان، ولكن (العدد) خمسة يشبه بعضه أباه، وبعضه الآخر أمه، لأنه مركب من ثلاثة، واثنين. وتشتق الكلمة "بانتا" بمعنى "الكل أو الكون" من بنتا (**pente** بمعنى "خمسة")، ويسمون العد (أو الإحصاء) "التخميس" (أي العد

بالخمسات). وكذلك يكون العدد خمسة من ذاته مربعاً من وحدات يساوي عددها عدد الحروف الهجائية المصرية، وعدد السنين التي يحياها عادة العجل آبس. واعتاد المصريون أيضاً أن يسمواهورس "مين" ومعناه "المنظور"، لأن الكون مدرك بالحس ومرئي، بينما تسمى إيزيس أحياناً موث (**Mouth**)، وأحياناً أخرى أثوري (**Athyri**)، أو مِثِور (**Methuer**). ويعنون بأول هذه الأسماء الأم، وبالثاني البيت الكوني لهورس، أي محل ووعاء الخلق، كما يذهب أفلاطون، والثالث مكون من كلمتي "المليئة" و"السبب" إذن أن مادة الكون مليئة، ومقترنة (كإيزيس) (بأوزيريس) الخيّر، الطاهر، الرتيب.

٥٧- ويبدو أن هيسيودوس أيضاً عندما جعل من خاؤس، والأرض، وتارتروس وإروس أصول الأشياء كلها، لم يفكر في أصول أخرى غير هذه، إذا استبدلنا الأسماء، فأطلقنا اسم الأرض على إيزيس، واسم إروس على أوزيريس، واسم تارتروس على توفون، أما خاؤس فقد جعله هذا الشاعر في القاع ليكون بمثابة مقر للكون. وكأن هذا الموضوع يذكر الإنسان على نحو ما بأسطورة أفلاطون التي يقصها سقراط في "المأدبة" عن ميلاد إروس، فيقول: إن إلهة الفاقة (بنيا– **Penia**) عندما اشتاقت إلى الأطفال اضطجعت بجانب إله الوفرة (**Poros**) وهو نائم، فحملت منه، وأنجبت إروس، وهو ذو طبيعة مختلطة شديدة التغير، لأنه أنجب من أب خيِّر حكيم يكفي نفسه بنفسه في كل شيء، ولكن أمه

معوزة ومعدمة، تتطلع دائماً بسبب عوزها إلى شخص آخر تتعلق به. فليس إله الوفرة سوى الأول المحبوب، والمرغوب فيه، والكامل، والكافي نفسه بنفسه. ويسمى أفلاطون المادة الخام الفقر، فهي تفتقر في ذاتها إلى الخير، بينما هي تمتلئ منه، وتتوق إليه دائما، وتشترك فيه. وليس الكون (وهو) هورس الذي ينجبانه مخلداً، أو خلواً من المشاعر، والآلام، أو غير فانٍ، ولكنه تتجدد ولادته دائماً أبداً، ويظل شاباً على الدوام غير خاضع البتة للفناء بتغير الأحداث، ودورانها.

٥٨- وعلى المرء ألا يدرس الأساطير على أنها قصص حقيقية، بل يجب عليه أن يأخذ من كل أسطورة القدر المناسب الذي يتفق والواقع. ولذلك إذا ما تحدثنا عن المادة يجب ألا ننساق وراء آراء بعض الفلاسفة، فنتصورها جسما عديم الروح دون صفات مميزة، بليداً في حد ذاته، وخاملا. فنحن في الواقع ندعو الزيت مادة التطيب، والذهب مادة التماثيل، ولكنهما ليسا مفتقرين إلى التمييز. ونقدم روح الإنسان ذاتها وفكره على أنهما مادة أساسية للمعرفة والفضيلة، ونمدهما بالعقل ليزّينهما وينسقهما، وقد أعلن بعضهم أيضاً أن العقل (**nous**) مكان تتجمع فيه الصور، وتنطبع الأفكار. ويرى بعضهم أن إفراز الأنثى ليس قوة، ولا أصلا، بل مادة الإنتاج وغذاؤه. ولذلك يجب علينا أن نتمسك بهذه الفكرة، وأن نتخيل أيضاً أن هذه الإلهة إيزيس تشاطر دائماً (حياة)

الإلهة الأول (أوزيريس)(٤١)، وتقترن به لحبها، واشتياقها للأشياء الطيبة والجميلة التي حوله، ولا تخالفه ألبته. فكما نقول عن الزوج الشرعي الشريف: إنه يحب زوجته، وتحق له معاشرتها، وكما نقول عن الزوجة الفاضلة التي تعاشر زوجها: إنها ترغبه، وتشتاق إليه، كذلك يمكننا أن نتصور هذه الإلهة متعلقة به دائماً، ومُلحَّة عليه، وممتلئة (أي حاملا) على الدوام بأرفع المبادئ، وأطهرها(٤٢).

٥٩- ولكن عندما يقتحم توفون، ويستولى على الأصقاع المتطرفة، فإنها تبدو آسية، وتوصف بأنها تنتحب، وأنها تبحث عن رفات أوزيريس، وأشلائه المبعثرة، وتكسوها وترتبها. ثم تأخذ الأجزاء الفانية؛ وتخفيها لكي تخرجها من نفسها، وتبعث منها خلقا جديداً، لأن مبادئ هذا الإله، وصوره، وفيوضه تبقى في السماء، وفي النجوم، أما الأشياء التي تذري في العناصر المتغيرة: في الأرض، وفي البحر، وفي النبات، والكائنات الحية فإنها تتحلل وتموت، وتواري التراب، ولكنها غالباً ما تضئ من جديد، وتبين ثانية في نتاجها (وتناسلها). ومن أجل هذا جرت الأسطورة بأن توفون كان يضاجع نيفثوس (على أنها زوجته الشرعية)، ولكن أوزيريس كان ذا علاقة خفية بها، فإن القوة الهدامة

---

(٤١) أكمل هكذا: "بل تحبه عندما تقترن به حب زوجة شرعية تقية".

(٤٢) ترجم هبفنر هذه العبارة هكذا: "فكما تقول عن الزوجة الوديدة إنها ترغب في زوجها، وتشتاق إليه على الرغم من أنها تمتلكه، وتعاشره، كذلك يقال عن الإلهة: إنها لا تبتعد عنه، بل تمسك به على الرغم من أنها تمتلئ (أي تحمل) بأرفع المبادئ وأطهرها".

تسيطر سيطرة تامة على الأجزاء المتطرفة من المادة التي يسمونها نيفثوس أو النهاية. ولكن القوة الخالقة والحافظة لا تنتشر في هذه الأجزاء إلا بذرة ضعيفة وهنانة، يقضي توفون عليها اللهم إلا ما تلتقطه (منها) إيزيس (على شكل أنوبس)، وتصونه، وتنميه، وتثبته.

٦٠- وخلاصة القول أن هذا الإله أوزيريس هو خير الإلهين كما يرى أفلاطون، وأرسطو؛ ويتحرك نحوه العنصر الخالق والحافظ في الطبيعة، ويتجه إلى الوجود، بينما يبتعد عنه العنصر المبيد الهدام، ويتحرك نحو اللاوجود. ومن أجل ذلك يسمون إيزيس باسم مشتق من (الإسراع) مع الفهم، أو الحمل أماما لأنها حركة حية ذكية. فليس هذا الاسم اسما أعجمياً، بل كما أن جميع الآلهة يطلق عليهم لفظ عام واحد هو ثيوي (**Theoi**)، وهذا اللفظ مشتق من كلمتين هما (**Theaton**) وتعني المرئي، و(**Theon**) وتعني المسرع: كذلك نسمي هذه الآلهة "إيزيس" بسبب فهمها، وحركتها، ويسميها المصريون إيزيس أيضاً. ويقول أفلاطون: وعلى هذا النحو كان القدماء يطلقون على "الجوهر" ( **ousia-essence**) لفظة "العقل" (**Isia- sense**) ولذلك يتحدث عن الفكر، والفهم على أنهما طفرة العقل، وحركته في أثناء إسراعه وحمله. وعلاوة على ذلك ينسبون الفهم، والخير، والفضيلة إلى الأشياء الدائمة الجريان والسرعة، كما كانوا يحقرون الشر بأضدادها: فيسمون ما يعرقل الطبيعة، ويقيدها، ويقفها، ويعوق تقدمها، وسيرها الحثيث "السير المريض"

(**kakia**) و"الحيرة" أو "صعوبة السير" (**Aporia**) و"الجبن" أو "الخوف من السير" (**deilia**) و"عدم السير" (**an-ia**).

**٦١- ويتركب اسم أوزيريس من كلمتي "هوسيون" (Hosion) (أي تقي)، و"هيرن" (Hieron) (أي مقدس)، فهو العامل المشترك بين الأشياء التي في السماء، والأشياء التي في العالم السفلي (هاديس)، ومن هنا اعتاد القدماء تسمية هذه "هيرا" (المقدسة)، وتلك "هوسيا" (التقية)، ولكن ذلك الذي يظهر الأشياء السماوية، والذي هو سبب الأشياء المتسامية يسمى أحيانا أنوبس، وأحيانا أخرى هرمانوبس، لأنه ينتمي من ناحية إلى الأشياء العليا، ومن ناحية أخرى إلى الأشياء الدنيا. وهذا هو السبب الذي من أجله يقرب المصريون له مرة ديكا أبيض، ومرة أخرى ديكا كركي اللون، لأنهم يعدون الأشياء السماوية بسيطة وواضحة، والأشياء الدنيا خليطة ومبرقشة. ولكن على الإنسان ألا يدهش بأية حال من تحول هذه الألفاظ في اليونانية. ففي الحق هناك كلمات أخرى لا تعد ولا تحصى، خرجت مع المهاجرين من بلاد اليونان، وظلت حتى اليوم على قيد الحياة في الخارج لدى الشعوب الأجنبية. فإذا ما استعاد الشعر اليوم بعضا منها، فإن أولئك الذين يسمون أمثال هذه الألفاظ ألفاظاً غريبة يتهمونه باطلا باستعمال الأعجميات. ويقولون: إنه مازال مسطوراً في المؤلفات المسماة "كتب هرميس عن الأسماء المقدسة" أن المصريين يسمون القوة المسيطرة على دوران الشمس هورس، بينما**

يسميها الإغريق أبو للون، وأن القوة المهيمنة على الهواء يسميها بعضهم أوزيريس وبعضهم الآخر سرابس "وأن القوة المتحكمة في الأرض، والنبات تسمى أحيانا إيزيس"[٤٣]– وأحيانا أخرى سوثس بالمصرية. وهذه معناها "الحمل" أو "الحبل" أو "أن تحمل أو تحبل". من أجل هذا يسمى هذا النجم في اليونانية مع التحوير في نطق الكلمة "كوون" (**kuon**) أي كلب الجبار ذلك النجم الذي يخصصونه لإيزيس. وما يجب على الإنسان ألبته أن يتمسك برأيه فيما يتعلق بهذه الأسماء، بيد أني أفضل أن أتنازل للمصريين عن اسم سرابس دون اسم أوزيريس، لأني أعد ذلك أجنبيا، بينما أعد هذا يونانياً، وأعدهما مع ذلك اسمين لإله واحد (لا غير)، ولقوة واحدة (لا ثاني لها).

٦٢– ونفس الشيء ينطبق على المعتقدات المصرية، فغالباً ما يسمون إيزيس باسم "أثينا" (نيت)، ويعني شيئاً مثل "أتيت من ذاتي"، ويبين أن الحركة الدافعة لهذه الإلهة ناشئة من ذاتها. ويسمى توفون– كما ذكرنا من قبل– سيث[٤٤]؛ وببون (**Bebon**)، و"سمو" (**Smu**)؛ وهذه الأسماء تدل على التعويق العنيف الحائل، أو الاعتراض أو الانقلاب. وفوق ذلك يسمون حجر المغنطيس "عظم هورس"، والحديد "عظم توفون" كما يذكر مانثون، فكما أن الحديد ينجذب أحيانا إلى

---

(٤٣) أثبت هبفنر هذه العبارة في كتابه ص ٣٧.

(٤٤) في الفصلين ٤١ و٤٩.

الحجر (المغنطيسي) ويتبعه، وأحيانا أخرى يبتعد عنه ويرد في اتجاه مضاد، كذلك تنجذب حركة العالم المنقذة الخيرة العاقلة نحو تلك القوة العاتية التوفونية، وتجر نفسها نحوها، وبالإقناع تلطفها، ولكنها ترتد إلى نفسها ثانية عندما ترتطم بعائق، وتغوص في الشدائد.

ويقول يودكسوس أيضا: كان المصريون يروون عن زيوس في أساطيرهم أنه إذ نمت ساقاه معاً ملتصقتين لم يستطع السير، وبذلك ظل في عزلة بسبب خزيه من أجل هذا، ولكن إيزيس شقتهما، وبفصل هذين الجزأين من الجسم أصبح في إمكانه السير الحثيث. ومعنى هذه الأسطورة أن عقل هذا الإله، وفهمه اللذين ظلا غير مرئيين وغير مدركين لم يستطيعا أن يتقدما نحو التناسل إلا بفضل الحركة.

٦٣- وتبين الصلاصل أيضا أن كل ما يوجد يجب أن يهتز أو يتصلصل، وألا يكف عن الحركة ألبته، بل يجب إذا ما أصابه النعاس، والخمول أن يوقظ، ويستثار إذ يقول المصريون: إنهم يبعدون توفون، ويطردونه بالصلاصل، وهم يقصدون بذلك أنه عندما يشل الفناء عمل الطبيعة، ويقفه فإن الخلق يحرره، ويبعثه من جديد بفضل الحركة. وبينما تكون الصلاصل، وبخاصة في جزئها العلوي، مستديرة الشكل، فإن هذا الجزء المستدير يحتوي على أربعة عيدان تتصلصل، لأن ذلك الجزء من العالم الذي خلق ليفنى ثانية تحيط به دائرة القمر من جهة، ومن جهة أخرى يتحرك وكل شيء فيه يتغير شكله بسبب العناصر الأربعة: النار،

والتراب والماء، والهواء. وينحتون كذلك فوق منحنى الصلاصل تمثال قطة ذات رأس بشري، وفي أسفل أي تحت العيدان التي تصلصل وجه إيزيس على جانب ووجه نيفثوس على الجانب الآخر. ويرمزون بهذين الوجهين إلى الميلاد والممات (أي التناسل، والنهاية) لأنهما تغيرات وحركات العناصر الأربعة. ولكنهم يرمزون بالقطة إلى القمر لبرقشة هذا الحيوان، ونشاطه الليلي وخصبه. إذ يقال: إن القطة أول ما تلد تلد واحدة ثم مثنى، وثلاث، ورباع، وخماس، وهكذا دواليك بزيادة واحدة كل مرة حتى تلد سبع مرات، فيصبح مجموع ما تلد ثماني وعشرين هريرة، وهذا عدد أوجه القمر، ومع أن هذا قد يبدو حديث خرافة إلا أن إنساني عيني القطة يتسعان ويستديران عندما يكون القمر بدرا، ويصغران، ويلمعان بشدة عندما يتناقص هذا الجرم السماوي. وأخيراً يشيرون بملامح القطة البشرية إلى الذكاء، والعقل اللذين يوجهان القمر في تغيراته.

٦٤- وصفوة القول: يستطيع الإنسان أن يقول على هذا النحو: ليس صحيحا أن يعد المرء أوزيريس أو إيزيس الماء أو الأرض أو الشمس أو السماء، وتوفون النار والجفاف، والبحر، ولكننا بكل بساطة إذا ما نسبنا إلى توفون كل ما هو غير معقول، وغير مرتب نتيجة إسراف أو نقص، وإذا ما بجلنا وكرمنا ما هو مرتب وخير ونافع على أنه من عمل إيزيس، وعلى أنه شكل أوزيريس، وصورته، وجوهره، فإننا لا نكون حينئذ

مخطئين. وعلاوة على هذا سنضع حدا لشكوك يودكسوس، وحيرته في تساؤله: كيف أن ديمتر لا ترعى الغرام كإيزيس؟ وكيف أن ديونوسوس لا يستطيع أن يجري النيل أو يحكم الموتى؟ لأننا بقضية منطقية واحدة يمكننا أن نستنبط أن هذين الإلهين يهيمنان على كل جزء مما هو خير، وأن كل ما هو جميل، وخير في الطبيعة يدين لهما بوجوده؛ فبينما يهب الإله (أوزيريس) الأصول، تتسلمها الإلهة (إيزيس)، وتوزعها.

٦٥- وعلى هذا النحو سنناقش كثيراً من الآراء المبتذلة التي يقول بها الذين يجدون لذة في ربط كل ما يصيب هذه الآلهة بالتغيرات الجوية في مختلف الفصول، أو بنمو المحصولات، والبذر، والحرث، والذين يقولون إن أوزيريس يدفن عندما يدفن القمح في الأرض ويواريه التراب، ثم يبعث ويظهر من جديد عندما يأخذ الزرع في الانتاش. وهذا أيضا هو السبب الذي يقال من أجله: إن إيزيس عندما أدركت أنها حامل علقت في جيدها تميمة في اليوم السادس من شهر بابه (الموافق اليوم الثالث من شهر أكتوبر)، وإنها ولدت في الانقلاب الشتوي (الموافق اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر الموافق اليوم السابع والعشرين من شهر كيهك) هاربوكراتيس قبل أوانه، ناقص التكوين وسط باض الزهر، ونتش النبات، ومن أجل ذلك يقربون له بواكير العدس الناجم، ويحتفلون بأعياد ميلاده عقب الاعتدال الربيعي (أي بعد اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس). فإذا ما سمع العامة ذلك، فإنهم يغتبطون له، ويصدقونه

لأنهم يستنبطون تفسيراً صادقاً لما يألفونه ويوجد بينهم.

٦٦- وليس عليهم في ذلك غضاضة إذا ما احتفظوا لنا أو لا بآلهتنا التي يشترك الشعبان فيها، ولم يجعلوا منها ملكا خاصاً للمصريين، ومن ثم لم يجعلوا هذه الأسماء وقفا على النيل وحده، ولا تلك الأرض التي يرويها، ولم يزعموا أن المنافع، وأزهار البشنين من صنع هذه الآلهة فحسب، ولا غضاضة أيضا إذا لم ينكروا الآلهة العظام على غيرهم من البشر ممن ليس عندهم نهر كالنيل، أو مدن مثل بوتو، وممفيس. فإيزيس على وجه خاص، وبطانتها من الآلهة تمتلكهم كافة الشعوب وتعرفهم مع أنهم تعلموا منذ زمن ليس بسحيق أن يطلقوا على بعضهم تلك الأسماء المألوفة لدى المصريين، ولكنهم منذ البداية كانوا يدركون قوة كل منهم، ويبجلونها. وثانيا- وهذا أهم- إذا هم لم ينتبهوا انتباها خاصا، ولم يحذروا من أن يستأصلوا في غفلتهم كل الأشياء المقدسة، ويصفوا بها الرياح، والأنهار، وحبوب القمح، والمحصولات، ومصير الأرض، واختلاف الفصول مثلهم في ذلك كمثل الذين يسمون الخمر ديونوسوس، والهيب هيفايستوس. ويقول كليانثيس في موضع ما: إن نسمة الهواء التي تحمل، وتسري خلال المحصولات ثم تموت (فيها) تسمى برسيفونا. وقد قال أحد الشعراء في كلامه عن الحصاد:

"وعندما يبتر الفتيان أوصال ديمتير"

فهؤلاء الأشخاص لا يختلفون ألبته عن أولئك الذين يعدون

القلاع، والحبال، والأناجر[٤٥] رباناً، واللحمة والسداة نساجاً، والقدح أو شراب الشهد أو عصيدة نطاسيا. إنهم يخلقون في الناس آراء مخيفة فيها إلحاد إذ يضفون أسماء الآلهة على أشياء لا حس لها، ولا روح، يفنيها البشر بالضرورة لحاجتهم إليها، واستعمالهم إياها. إذ يستحيل على الإنسان أن يعتبر مثل هذه الأشياء آلهة.

٦٧- فليس الله عديم العقل أو الروح، أو خاضعاً للبشر. ومن أجل هذه الأمور سالفة الذكر أدخلنا في عداد الآلهة تلك الكائنات التي تستغل هذه الأشياء، وتهبها إيانا، وتقدمها لنا بوفرة. على الدوام. ونحن نرى أن هؤلاء الآلهة يختلفون باختلاف الأمم، أو أن منهم آلهة أعجميين، وآلهة يونانيين، أو آلهة جنوبيين، وآلهة شماليين، بل كما أن الشمس، والقمر، والسماء، والأرض، والبحر ملك مشاع بين الناس جميعاً، وقد سُميت بأسماء مختلفة عند مختلف الأمم، كذلك يوجد أيضاً عقل (لوجُس) إلهي واحد فحسب ينتظم كل هذه الأشياء، وعناية واحدة لا غير تحكمها، وواجبات تؤدى، وقوة تسيطر على كل شيء؛ وظهرت عند مختلف الأمم ضروب من التكريم والتسميات تتفق وعاداتها. واستخدم الإنسان رموزاً مقدسة، بعضها غامض، وبعضها الآخر واضح، وتوجه الفكر إلى المسائل المقدسة، وإن لم يخل ذلك من

---

(٤٥) جمع أنجر: وهو مرساة السفينة، والمرساة التي ترسى بها السفينة تسميها الفرس لنكر. مختار الصحاح، مادة– ر س ا. ويلاحظ أن معناها بالإنجليزية (**Anchor**). ولعل أصلها يوناني أنكرا (**Anchora**).

خطورة، فَضَلّ بعضهم سواء السبيل، وهوى في الخرافة، بينما وقع بعضهم الآخر، وهم غافلون، في هوة الإلحاد، بينما كانوا يحاولون الفرار من الخرافات كأنها مستنقع كريه.

٦٨- ولذلك يكون من الضروري قبل كل شيء عند دراستنا هذه الأمور أن نأخذ بالمنطق الذي ينبع من الفلسفة، وأن نتأمل كل شيء من ذلك الذي يُقال ويُعمل حتى لا نخطئ بأن نرى رأياً مخالفاً في الأمور التي أقرَّتها العادات إقراراً صحيحاً، والتي تتعلق بالقرب والأحفال كما يقول ثيودوروس: إنه كان يقدم الكلمة الطيبة بيده اليمنى، فكان بعض المنصتين إليه يتناولونها بيدهم اليسرى. فإن الحقيقة القائلة بأنه يجب أن يُرد كل شيء إلى العقل يمكن الإنسان أن يدركها من تلك العادات ذاتها: فهم في اليوم التاسع عشر من الشهر الأول (شهر توت الموافق اليوم السادس عشر من سبتمبر) يحتفلون بعيد هرميس (أي تحوتي أو توت) فيأكلون شهداً، وتيناً، ويقولون عندئذ: "الحقيقة شيء حلو"، وإن التميمة التي تعلقها إيزيس كما يروى، حول جيدها معناها: "الصوت الحق". ويجب ألا نعد هاربوكراتيس إلهاً ناقصاً، وطفلاً، أو إلهاً يقي الخضر[٤٦]، بل راعياً ومصوباً للأحكام السريعة غير الناضجة التي يصدرها الناس عن الآلهة. وهذا هو السبب الذي من أجله يجعل هذا الإله إصبعه على شفتيه إشارة إلى التحفظ في الكلام والصمت. وعندما

---

(٤٦) في قراءة أخرى "حبة تنمو".

يقدمون له في شهر مسري قرباناً من الخضر يقولون: "اللسان حظ، اللسان مصير". ويقولون: ومن بين جميع نبات مصر تُقدس شجرة "البرسيه" على وجه خاص لهذه الإلهة (إيزيس)، لأن ثمرتها تشبه القلب، ووقتها اللسان. فما من شيء يمتلكه الإنسان أقدس من المقدرة على التفكير[٤٧]، وخاصة التفكير في الآلهة. وما من شيء أيضا أقوى منه أثراً في جلب سعادته. ومن أجل هذا نوصي كل من يأتي هنا (في دلفي) ليستعلم الغيب أن يفكر تفكيراً دينياً، وأن يتكلم كلاماً حسناً. ولكن جمهور الناس يسلكون مسلكا مضحكا عندما يطلبون أول الأمر في مواكبهم، وأحفالهم أن يتكلم الإنسان كلاماً حسناً، ثم تصدر عنهم بعد ذلك أضل الأحاديث، وأفحش الأفكار عن الآلهة.

**٦٩-** ولكن ما موقف الإنسان إزاء الطقوس الكئيبة المقبضة الحزينة، إذا لم يكن من اللائق التخلص مما فرضته علينا العادات، ولا بلبلة الآراء بشأن الآلهة، وتشويشها من جراء مزاعم باطلة؟ إذ تحدث عن الإغريق أيضاً أشياء كثيرة تشبه ما يعمله المصريون في أعياد إيزيس، ويأتونها في نفس الموعد تقريباً: فالنساء في أثينا يصمن وهن جالسات على الأرض في أعياد "الثيسموفورياي"، وأهل بؤوتيا يحركون هياكل ديمتير إلهة الحزن، ويسمون هذا العيد "عيد الأتراح"، لأن ديمتير تحزن على ابنتها لنزولها (إلى مملكة هاديس أو بلوتون). وإن هذا الشهر الذي

---

(٤٧) ترجمة أخرى "على الكلام" لأن للكلمة اليونانية هذين المعنيين.

يتفق وارتفاع برج الثريا هو شهر البذر الذي يسميه المصريون هاتور (أكتوبر– نوفمبر)، والأثينيون بوأنبسيون، وأهل بؤوتيا دماتربوس. ويروى ثيوبومبوس عن القاطنين ناحية الغرب أنهم يعدون الشتاء كرونوس، وعلى هذا النحو من التسمية يعدون الصيف أفروديتا والربيع برسيفونا، وأن من كرونوس، وأفروديتا وُلدت جميع الأشياء. ولكن الفريجيين يعتقدون أن الإله ينام في الشتاء، ويستيقظ في الصيف، وينشدون له أناشيد البجبجة في الشتاء لينام، ويغنون له في الصيف ليوقظوه على طريقة عبدة باخوس. ويزعم البفلجونيون أنه يُصفَّد بالأغلال في الشتاء ويُحبس؛ ولكنه يطلق سراحه في الربيع، ويستعيد حركته، وحريته.

٧٠– وإن هذه الفترة من الزمن (التي يحدث فيها كل هذا) تجعلنا الآن نرتاب في أن هذه الأعياد الكئيبة تحدث نظراً لاختفاء المحصولات والثمار التي لم يكن القدماء يعدونها إلهة، بل هبات من الآلهة ضرورية، وهامة لحياة لم تعد حياة وحشية، أو حيوانية. وفي هذه الفترة التي كانوا يرون فيها الثمار تختفي تماماً من الشجر، وتتوارى عن الأنظار، بينما كانوا يزرعون ثماراً أخرى بطريقة حقيرة وضيعة، وهم يسفنون وجه الأرض بأيديهم، ويسوونها، ويودعونها (أي البذور) إياها غير موقنين من ظهورها، أو إثمارها مرة أخرى– في هذه الفترة– كانوا يقومون بكثير من الأعمال كأبي بهم من جنازة وانتحاب. وكما نقول عمن يشتري مؤلفات أفلاطون: "إنه يشتري أفلاطون"، وعمن يمثل مقطوعات ماناندروس الشعرية: "إنه

يمثل مناندروس"، كذلك لم يترددوا في أن يطلقوا على أعطيات الآلهة، ومنتجاها أسماء الآلهة أنفسهم إذ أنهم يكرمونها، ويتجهون لها لحاجتهم إليها. ولكن الخلف فهموا هذا فهما كله غباء، وسخف، فنسبوا إلى الآلهة مصير المحصولات، ولم يسموا ظهور الحاجات، واختفاءها ميلاد الآلهة، ووفاتهم فحسب، بل كانوا يصدقون ذلك أيضا. فأفعموا أذهانهم بآراء خاطئة فاسدة مشوشة على الرغم من أن خطأ هذه الأمور شاخص أمام أعينهم. لذلك كان كسينوفانيس الكلوفوني محقا عندما وصف المصريين بقوله: إنهم إذا ما اعتقدوا في الآلهة فما ينبغي لهم أن يبكوها، وإذا ما بكوها فما ينبغي لهم أن يعدوها آلهة (لا لأنه كان يهزأ بورعهم)[٤٨]، بل لأن من المضحك أن يتوسلوا بالدموع لكي تظهر المحصولات وتنضج من جديد، ثم يستهلكونها.

٧١- ليست المسألة هكذا، بل إنهم يندبون في واقع الأمر محصولاتهم، ويدعون الآلهة الذين يخلقونها ويقسمونها، أن يجودوا بمحصولات جديدة، ويخرجوها غير تلك التي تستهلك. ومن ثم كان الاعتقاد السائد بين الفلاسفة- وما أصدقه- هو أن أولئك الذين لم يتعلموا كيف يفهمون الألفاظ فهما صحيحا غير قادرين على استعمال الأشياء استعمالا صحيحا، كأولئك الإغريق الذين لم يتعلموا ولم يتعودوا أيضا أن يسموا التماثيل من البرونز أو الحجر والصور رسوما للآلهة،

(٤٨) أثبت هبفنر هذه العبارة في المجلد الثاني من كتابه، ص ٤٣.

وصوراً لتكريمهم، بل دعوها الآلهة أنفسهم، ثم بلغت بهم الوقاحة أن قالوا: إن لاخاريس قد خلع عن أثينا ثيابها، وإن ديونوسوس قد مزّق غدائر أبوللون الذهبية، وإن زيوس (جوبتر) كابتوليوس قد أحرق في الحرب الأهلية وأبيد، وهم لا يفطنون في ذلك أنهم إذ يشيرون إلى هذه الأسماء يقبلون الآراء الفاسدة، يسيرون عليها. ولكن كان هذا إلى حد كبير سلوك المصريين فيما يختص بهذه الحيوانات (المقدسة) التي يكرمونها، ويصيب الإغريق في هذه الأمور إذ يقولون ويعتقدون أن الحمامة حيوان أفروديتا المقدس، وأن الثعبان حيوان أثينا المقدس، وأن الغراب حيوان أبوللون المقدس؛ وأن الكلب حيوان أرتميس، كما يقول يوربيديس:

"ستصبح صورة هيكاتا السنية (أي) كلبا"

بيد أن جمهور المصريين (على عكس الأغريق) عندما كانوا يبجلون الحيوانات ذاتها، ويعاملونها على أنها آلهة لم يملأوا طقوسهم الدينية بالمضحكات فحسب، فهذا أقل الشرور لهذا السخف، بل نشأ من هذا هراء خطير يهوي بالضعاف والسذج إلى درك الخرافة المتطرفة، ويدفع بأجسر الناس وأشجعهم إلى الإلحاد والتفكير البهيمي. فليس من غير اللائق إذاً أن نسرد في شيء من التفصيل ما يبدو من حقائق في هذه الأمور.

٧٢- إن الفكرة القائلة بأن الآلهة غيروا أنفسهم إلى حيوانات خوفا من توفون، وتخفوا في أجساد آباء منجل والكلاب، والصقور تفوق

كل زيف، وكل خرافة. وإن تلك الفكرة القائلة بأن أرواح الموتى، مادامت على قيد الحياة، تولد من جديد في هذه الحيوانات لا يمكن تصديقها أيضا. أما أولئك الذين يرغبون في أن يعينوا لهذا الأمر سببا سياسيا محضا فيحكي بعضهم أن أوزيريس في حملته الكبرى قد قسم قواته أقساما كثيرة يسميها الإغريق فرقا، وفيالق، وقد أعطاها جميعا بيارق في أشكال الحيوانات التي أصبح كل منها مقدسا جديرا بالتكريم لدى أقارب الذين انضموا (تحت لوائه). ولكن يحكى بعضهم الآخر أن الملوك اللاحقين، لكي يلقوا الرعب في قلوب أعدائهم، كانوا يظهرون في القتال مقنعين بأقنعة ذهبية وفضية على شكل رءوس الحيوانات المفترسة. ويروي غيرهم أن واحدا من هؤلاء الملوك الماكرين الحاذقين، عندما لاحظ أن المصريين كانوا بطبيعتهم طائشين ومتقلبين وثائرين، وأنهم كانوا مع ذلك ذوي شوكة لا تكسر، وعزيمة لا تقل بسبب عددهم الغفير إذا ما اتحدوا، ورسموا الخطة، عندئذ علمهم هذه الخرافة، وبذر بينهم فرصة أبدية للشقاق المستمر بأن أمر كل جماعة من الناس أن يكرموا نوعا من الحيوانات ويقدسوه. وكانت هذه الأنواع تضمر الخصام والعداء بعضها لبعض، وكان بعضها بطبيعته يأكل ما لا يأكله الآخر. وكانت كل جماعة من الناس تذود عن حيواناتها الخاصة وتحتد إذا ما أسئ إليها فساقتها عداوة الحيوانات دون ما فطنة إلى أن تتناصب العداء، وتتخاصم. وبذلك يكون أهل مدينة الذئب لوكوبوليس حتى اليوم هم الذين يأكلون من دون المصريين الشاة، إذ أن الذئب الذي يعدونه

إلها يأكلها أيضا. ولما كان أهل مدينة الكلب "كونوبوليس" يأكلون سمك الأكسورنخوس (أي القنوم) فإن أهل مدينة أكسورنخوس يصيدون حتى يومنا هذا كلبا، ويعترونه، ويلتهمونه كأنه لحم القربان. ومن ثم تحارب أهل هاتين المدينين وتخاصموا، فاقتص الرومان منهم وأعادوهم إلى النظام.

٧٣- ويحكي كثيرون أن روح توفون نفسه مقسمة بين هذه الحيوانات. ويبدو أن هذه الأسطورة تعني أن كل طبيعة غير عاقلة وضارية هي جزء من الجن الخبيث. ولكي يهدئوا هذا (الجن الخبيث) ويلطفوه، كانوا يعنون بهذه الحيوانات ويكرمونها. فإذا نزل محل عنيف شديد يجلب معه أمراضا فتاكة، أو كوارث أخرى غير عادية، وغريبة فإن الكهان يسوقون جانبا بعض هذه الحيوانات التي يكرمونها، ويهددونها، ثم يرعبونها بعد ذلك في الظلام، والصمت العميق. فإذا ما استمر الوباء قدسوها، وعتروها كأني بها وسيلة لعقاب هذا الجن، أو كفارة كبرى في أكبر بلية. ولقد روى مانثون أن أشخاصاً يسمون التوفونيين كانوا يحرقون أحياءً في مدينة إيليثويا، ويُذرى رمادهم بمذراة ويُبعثر. وكان هذا يؤدى علانية في زمن معين، أي في فترة الأيام الكلبية؛ غير أن قربان تلك الحيوانات المكرمة كان سراً من الأسرار، وكان يحدث في فترات غير مضبوطة حسب الظروف (الطارئة) لا يعرفه عامة الشعب، اللهم إلا عندما كانوا يشيعون جنازة (العجل آبس)، وحينئذ يأتون علناً ببعض

الحيوانات المقدسة، ويلقون بها في قبره أمام الملأ اعتقاداً منهم أنهم بهذا يوجعون توفون، ويحدون من اغتباطه (بموت آبس)، ويبدو أن آبس، وقليلا من الحيوان غيره، مقدس لأوزيريس؛ أما توفون فيخصونه بمعظم الحيوانات. وإذا صح هذا الوصف فإنه يعني أن المصريين كانوا يتبعون هذه الطقوس عند دفن الحيوانات التي يعترفون بها جميعاً، ويجلونها كالطائر أبي منجل، والصقر، وكريبريس، وآبس ذاته، ومنديس، إذ هكذا يسمى الماعز في مدينة منديس.

٧٤- تبقى بعد ذلك الفائدة (من عبادة الحيوانات)، ورمزيتها؛ فيشترك بعضها في إحدى الصفتين، ويشترك كثير منها في هاتين الصفتين. ومن الواضح أن المصريين أخذوا يكرمون البقرة، والشاة، والفأر الفرعوني لحاجتهم إلى هذه الحيوانات ولنفعها. وكذلك يكرم أهل ليمنوس القنبرة المتوجة لأنها تبحث عن بيض الجراد وتهشمه؛ ويكرم أهل ثساليا اللقلق لأن هذا الطائر يظهر عندما تُخرج الأرض من جوفها أسراباً من الثعابين، فيبيدها على بكرة أبيها. ومن أجل ذلك سنوا قانوناً يحكم على كل من يقتل لقلقاً بالنفي من البلاد. وكان المصريون يكرمون أيضاً الصل، وابن عرس، والجُعَل، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يلمحون فيها صوراً غامضة لقوة الآلهة كصورة الشمس في قطرات المطر. وما زال حتى اليوم كثير من الناس يعتقدون ويحكون أن بنات عرس تحملن من الأذن، وتلدن من الفم؛ ويشبه هذا توليد الكلام. وليس بين الجعلان أنثى

واحدة، فكل الجعلان ذكور فحسب تفرز منيها في شيء مكور تدحرجه بأن تدفعه إلى الخلف مثلها في ذلك كمثل الشمس تدير السماء في اتجاه مضاد (لجريانها)، بينما هي تجري من الغرب إلى الشرق. ويشبهون الصل (الكوبرا) بالنجم لأنه لا يهرم، ولأنه يتحرك في سهولة ومرونة بلا أطراف.

٧٥- حقاً لم يكرم التمساح دون أن يكون لتكريمه سبب معقول، بل يقال: إنه صورة الله، لأنه الحيوان الوحيد الذي لا لسان له ولأن العقل الإلهي (أو الكلمة الإلهية) لا يحتاج إلى صوت.

"بينما يسير في الدروب الساكتة يحكم بالعدل بين فناة البشر".

ويقولون: إن التمساح هو الحيوان المائي الوحيد الذي يغطي عينيه غشاء رقيق شف يتدلى من جبهته حتى إنه يستطيع أن يرى دون أن يُرى، وهذه مزية الإله الأول أيضاً. وحيثما تضع أنثى التمساح بيضها تدرك أنه المكان الذي يحد فيضان النيل، إذ لما كانت الإناث لا تستطيع أن تبيض بيضها في الماء وتخشى مع ذلك أن تبيضه بعيدا عنه فإ،ها تتنبأ بما سيكون عليه مستوى الماء بالضبط، حتى إنها تستغل النهر مرشداً عند وضع البيض، ومع ذلك تحتفظ بيضها جافاً غير رطب عند الفقس. وهي تبيض ستين بيضة، وتفقسها بعد أيام تساويها عدداً، وتعيش التماسيح التي هي أكثر التماسيح تعميراً ذلك العدد من السنين. والعدد ستون أول المقاييس عند الذين يهتمون بالأجرام السماوية (الفلك).

ومن بين الحيوانات التي يكرمونها للسببين معاً الكلب، وقد تكلمنا عنه آنفاً. أما الطائر أبو منجل الذي يقضي على الزواجف الخطيرة فالمصريون أول من علموا الناس استعمال المطهرات الطبية إذ لاحظوا أنه يحقن نفسه بنفسه ويتطهر. إن أشد الكهان إخلاصاً يُحضرون طهورهم عند التطهير من مكان يكون أبو منجل قد ارتوى منه: لأنه لا يشرب ماء يكون غير صحي، أو آسناً، ولا يدنو منه ألبته. وإنه يكون بقدميه، عندما يفتحهما بنسبة إحداهما للأخرى، وبنسبتهما لمنقاره، مثلثاً متساوي الأضلاع. وهو في تنوع ريشه كذلك واختلاط أسوده بأبيضه يشبه القمر في تربيعه الأول. ولا يعجبن الإنسان إذا طرب المصريون لهذا التشابه الطفيف. فقد استعمل الإغريق أيضاً كثيراً من أمثالها في تصوير آلهتهم، ونحت تماثيلهم. فكان يوجد في كريتا (كريت) تمثال لزيوس بلا أذنين، إذ لا يليق بسلطان الأشياء، وربها جميعاً أن ينصت لأحد. وقد جعل فيدياس في جانب تمثال أثينا ثعباناً، وسلحفاة في جانب تمثال أفروديتا في مدينة إيليس ليبين أن العذارى في حاجة إلى الحماية، وأن الخلود إلى البيت، والسكون يناسبان المتزوجات. وإن رمح بوسيدون ذا الثلاث الشعب رمز للإقليم الثالث من العالم الذي يتحكم البحر فيه، إذ جُعل بعد السماء والهواء في المرتبة. ومن أجل ذلك سموا أمفتريتا، والتريتونيس بأسمائهم. ولقد أضفى أتباع فيثاغورس أيضاً على الأعداد والأشكال (الهندسية) أسماء الآلهة: فأطلقوا على المثلث المتساوي الأضلاع اسم أثينا التي ولدت من الرأس (أي من رأس

زيوس)، لأن الأعمدة الساقطة من زواياه (أو رؤوسه) الثلاثة على أضلاعه تقسمه "بالتساوي". وكانوا يسمون أبوللون بالآحاد، لأنه لا يقبل الكثرة، ويثبت فردية الوحدة؛ وكانوا يسمون الثنائي النضال والجسارة؛ وكانوا يسمون الثالوث العدالة، لأنه بينما يحدث الظلم والتظلم من التفريط أو الإفراط، تولد العدالة وسطهما من أجل مساواتها. أما العدد المسمى الرباعي المقدس، أي ستة وثلاثين، فقد كان- كما هو معروف عنه- أغلظ الإيمان؛ وكانوا يطلقون عليه لفظ "العالم" إذ أنه مكون من مجموع الأعداد الأربعة الزوجية الأولى، والأعداد الأربعة الفردية الأولى معاً.

٧٦- فإذا لم ير أشهر الفلاسفة الذين يلاحظون سر معنى الألوهية في الأشياء عديمة الروح وعديمة الجسد أن من اللائق إغفال شيء من ذلك، وإهماله فإني أعتقد أن علينا احترام تلك الخواص التي توجد في تلك الطبائع التي لها إدراك، وروح، وشعور، وخلق. وليست المسألة أننا نكرم هذه الأشياء (نفسها)، بل إننا نكرم عن طريقها الألوهية، ما دامت هي بطبيعتها أشد المرايا صفاء لإظهار الألوهية. لذلك يجب علينا أن نعتبر هذه الأشياء بمثابة أداة، أو وسيلة (في يد) الإله الذي ينظم كل شيء، وأن نعتقد أن ليس ثمت شيء بلا روح يكون أرقى من شيء ذي روح، وأن شيئاً لا يدرك يكون أرقى من شيء يدركه- كلا! مهما جمع الإنسان ما في العالم من ذهب، وزمرد (لصنع تماثيل الآلهة). فلا يوجد الإله في الألوان، أو الأشكال، أو السطوح المجلية، بل إن جميع الأشياء

التي ليس لها نصيب من الحياة، أو التي لا تستطيع أن تسهم فيها يكون حظها من التكريم أقل من حظ الموتى. أما تلك الطبيعة التي تحيا، وترى، وتملك في ذاتها مصدر الحركة، وتعرف أن تميز ما يخصها مما يخص غيرها فتجذب إليها فيضاً من الكائن الجميل، وبعضاً من الكائن العاقل "الذي يرشد كل شيء" كما يقول هيراكليتوس. ولذلك لم تمثل الألوهية في هذه الحيوانات أسوأ من تمثيلها في قطع البرونز، أو الحجر التي يسري عليها الفناء، والمسخ (كالحيوانات المقدسة)، وتفتقر بطبيعتها إلى كل إدراك، وفهم. من كل ما قيل عن الحيوانات المكرمة أراني موافقاً أشد الموافقة على هذا (القول).

٧٧- أما عن الملابس فملابس إيزيس ذات ألوان مبرقشة، لأن سلطانها يمتد على المادة التي يمكنها أن تصير أي شيء، وتستقبل أي شيء من نور، وظلام، ونهار، وليل، ونار، وماء، وحياة، وممات، وبداية، ونهاية؛ أما لباس أوزيريس فخال من الظل، والبرقشة، بل له لون واحد يشبه النور، لأن المبدأ لا يمتزج بشيء مطلقاً، ولأن (الكائن) الأول المدرك بالعقل ليس بخليط لذلك كانوا يخلعون عن أوزيريس جلبابه، ويضعونه جانباً دون أن يرى أو يمس (بعد ذلك) ويحرسونه. أما ملابس إيزيس فكانوا يستعملونها كثيراً، لأن الأشياء المستعملة المدركة بالحس، والقريبة منا، تقدم المظاهر العديدة لذاتها، والمناظر الكثيرة التي تتغير بشتى الطرق. ولكن إدراك المدرك العقلي الطاهر البسيط الذي يشع في

الروح كوميض البرق يمنحها فرصة واحدة لرؤيته ولمسه، فرصة واحدة فحسب. ومن أجل هذا يسمى أفلاطون وأرسطو هذا الجزء من الفلسفة "الفلسفة التأملية، أو الصوفية"، إذ أن أولئك الذين يوغلون عن طريق العقل وراء هذه المسائل الوهمية المشوشة يطفرون نحو هذا الكائن الأول البسيط المجرد (أي غير المجسد)، فإذا ما أدركوا على نحو ما، تلك الحقيقة الصرفة التي تكتنف هذا (الكائن) الأول، اعتقدوا أنهم قد بلغوا ذروة الفلسفة.

٧٨- وفكرة أخرى يفسرها الكهان في الوقت الحاضر في احتراس شديد، وسر بالغ، وحذر كاف فحواها أن هذا الإله (أوزيريس) هو حاكم الموتى ومليكهم، إذ أنه ليس سوى ذلك الإله الذي يسمى عند الإغريق هاديس، وبلوتون، وهو ما يحير ألباب عامة الناس الذين لا يعرفون الحقيقة فيتوهمون أن أوزيريس الورع المقدس يقطن فعلا في الثرى، وتحت الثرى حيث توارت جثث الذين بلغوا على ما يعتقد الناس آخر العمر. ومع ذلك فقد أبعد هو نفسه عن الأرض غير مشوب، وغير مدنس خلوا من كل مادة عرضة للفناء والموت. وما دامت أرواح البشر في هذا العالم قد أصبحت رهينة الجسوم والشهوات، فلن تستمتع بصحبة هذا الإله إلا بقدر ما تتحسسه روحياً عن طريق الإدراك الذي تسمح الفلسفة به، كما تتحسس شبحاً غير واضح في المنام. ولكن عندما تتحرر هذه الأرواح من الجسوم، وتصعد إلى الملكوت غير

المادي، وغير المبصر، وغير الشهواني، الطاهر المقدس يصبح هذا الإله مرشدها، ومليكها الذي ترنو إلى جماله، وتتطلع إليه دون أن تشبع، ذلك الجمال الذي يعجز البشر عن وصفه. وبه تهيم إيزيس أيضاً على الدوام، كما تروي القصة القديمة، وتتعقبه، وتعيش معه، وتملأ بالجمال والخير كل شيء يتكاثر على الأرض.

وهكذا تشتمل هذه الرواية على أكثر التفسيرات ملاءمة لطبيعة الآلهة.

٧٩- وإذا وجب على الكلام الآن، كما وعدت، عن قرب البخور التي كانت تقرب كل يوم فعلى المرء أولا، وقبل كل شيء أن يدرك أن هؤلاء القوم (في مصر) يهتمون دائماً اهتماماً بالغاً بالشئون الصحية، وأن اهتمامهم بالصحة عند القيام بالطقوس الدينية وخاصة عند التطهر، وفي نظام الأكل لا يقل شأنا عن اهتمامهم بالتقوى والورع، إذ كانوا يرون أن من غير اللائق أن يكرموا ما هو طاهر، وما هو خلو من كل رجس، وهم بأجساد أو أرواح معتلة مريضة. ولما كان الهواء الذي ننتفع به أكبر انتفاع، والذي نعيش به غير ثابت الحال والتركيب دائماً، إذ يتكثف في الليل، ويثقل على الجسم، ويدفع بالروح إلى الهم والضجر كأني بها في غيوم الهموم ثقيلة، لذلك كانوا بمجرد استيقاظهم يحرقون صمغاً على موائد القربان ليجددوا الهواء، ويطهروه برائحة الصمغ، وبذا ينبهون الروح المضناة التي فطرت مع الجسد لأن هذه الرائحة تحتوي على شيء حريف منبه.

ثم إنهم عندما كانوا يلاحظون عند الظهيرة أن الشمس تخرج بكل قوتها من جوف الأرض أبخرة كثيرة ثقيلة، وتخلطها بالهواء كانوا يحرقون الصبر (على موائد القربان)، إذ أن الحرارة تحلل الكتل المعتمة المنتفخة، التي تجمعت في الجو المحيط وتشعها. وفي الحق يبدو أن الأطباء أيضاً يضعفون من اثر الأوبئة المعدية بإذكائهم ناراً حامية، لأن هذه النار تلطف الهواء. ويكون لهذا التلطيف أثر أكبر إذا ما أحرقوا عودا كالسر، والعرعر، والصنوبر. وعلى كل حال يقولون: إن أكرون ذلك الطبيب الذي كان في أثينا قد نال شهرة عظيمة إذ وصف للناس في أثناء الوباء المهول إشعال نار بجوار مرضاهم، وبهذا شفى منهم عدداً غير قليل. ويقول أرسطو: إن الأبخرة الزكية التي تفوح من الطيوب، والأزهار؛ والمروج لا تساعد على الصحة (والعافية) فحسب، بل (تعمل) على السرور أيضاً، لأنها بدفئها، وخفتها تريح الدماغ الذي هو بطبيعته بارد متجمد. فإذا كان الصبر عند المصريين يطلق عليه حقاً لفظ "سال" (أو بال)[٤٩] وأن هذا اللفظ إذا ترجم كان معناه "تبديد البطنة" أو "إزالة السمنة" فإن ذلك ينهض شاهداً جديداً على الغرض المذكور من استعماله.

٨٠- إن "كفي" (**kuphi**) مركب من ستة عشر عنصراً مزيجة: شهد، ونبيذ، وزبيب، و"كياب" (**cyperus**)، وصمغ، وصبر، وخشب

---

(٤٩) انظر هبفنر، المجلد الثاني، ص ٥٠.

الورد، ونبات سيليوس (الكرفس الجبلي)، ومصطكا، وقفر اليهودية (زفت)، وعود، وعرق المسهل؛ ويضيفون إلى هذه نوعين من العرعر يسمون أحدهما الكبير وهو الحبهان، والآخر الصغير وهو الغاب. ولا تركب هذه العناصر اعتباطاً بل (تركب) بينما تتلى الكتب المقدسة على العطارين المحضرين، وهم يمزجونها. أما ذلك العدد (ستة عشر)، وإن بدا جليا أنه مربع المربع، وأنه العدد الوحيد الذي يكون مربعاً طول محيطه يساوي مساحته، ويستحق من أجل هذا الإعجاب، فيجب أن يقال (عنه): إن إسهامه في الموضوع الذي نحن بصدده طفيف جداً. إلا أن معظم هذه المواد التي تدخل في هذا المركب تبعث- من أجل احتوائها على خواص عطرية- بريح حلوة، وبخار مفيد يتغير الهواء بهما، ويكتسب الجسم الذي يستولى عليه شعور لطيف سار بسبب العبيق حالة مزاجية تجلب له الرقاد، وكذلك تقشع (هذه الأبخرة) هموم النهار الثقيلة وتحلها وكأنها العقد دون ما حاجة إلى بنت الحان. كذلك تصقل هذه الأبخرة ذلك الجزء (من الروح) ذا الموهبة الخيالية، وذا القدرة على تقبل صور الأحلام، فيصبح كالمرآة، وتجعله صافياً، شأنها في ذلك شأن أنغام العود الذي اعتاد أتباع فيثاغورس أن يعزفوه (يستعملوه) قبل النوم، فكانوا على هذا النحو يزيلون بالسحر ويشفون ذلك الجانب الشهواني غير العاقل من الروح. فالحقيقة أن الروائح المنبهة غالباً ما تعيد الإحساس المفقود، وغالباً ما تلطفه، وتسكنه عندما تسري فيوضها في الجسم كله بفضل صفاتها الأثيرية؛ وكقول بعض الأطباء: يتيسر النوم

عندما يتسرب بخار الطعام في الأمعاء في لطف، ويسكنها، ويحدث فيها نوعاً من الدغدغة. ويستعملون "كفي" الآن شرابا، ومرهما فإذا ما شرب طهر الجوف، أما (إذا استعمل) مرهما فهو[٥٠] كملين وفوق ذلك يكون الصمغ والصبر من عمل الشمس، إذ تفرزهما الأشجار نتيجة للحرارة. ومن العناصر التي تكون "كفي" عناصر أخرى تشرح الصدر بالليل أكثر (منها بالنهار) أي تلك العناصر التي اعتادت أن تنمو في الصرصر من الرياح، والظلال، ولأنداء، والرطوبة، لأن ضوء النهار مفرد وبسيط، ويقول بنداروس: إن الشمس ترى من خلال الأثير المنعزل "بينما يكون هواء الليل مزيجاً، ومركباً من أضواء، وقوى كثيرة كأنها بذور تنصب من ذلك النجم في (بقعة) واحدة. وهم على هذا النحو محقون إذ يحرقون هاتين المادتين: الصمغ، والصبر في النهار، لأنهما شيئان بسيطان يخرجان من الشمس، أما ذلك الشيء ("كفي") فيقربونه إذا ما جن الليل، لأنه مركب من عناصر تتصف بجميع الصفات المختلفة.

---

(٥٠) هنا ثمانية أحرف ناقصة من الأصل. انظر هبفنر، المجلد الثاني، ص ٥١، هامش (١).

# الفهرس